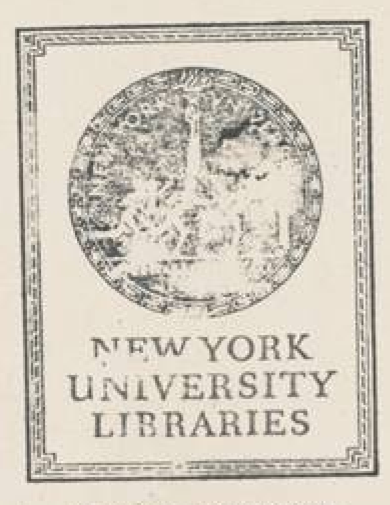

BOBST LIBRARY
3 1142 02771 8173


NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES

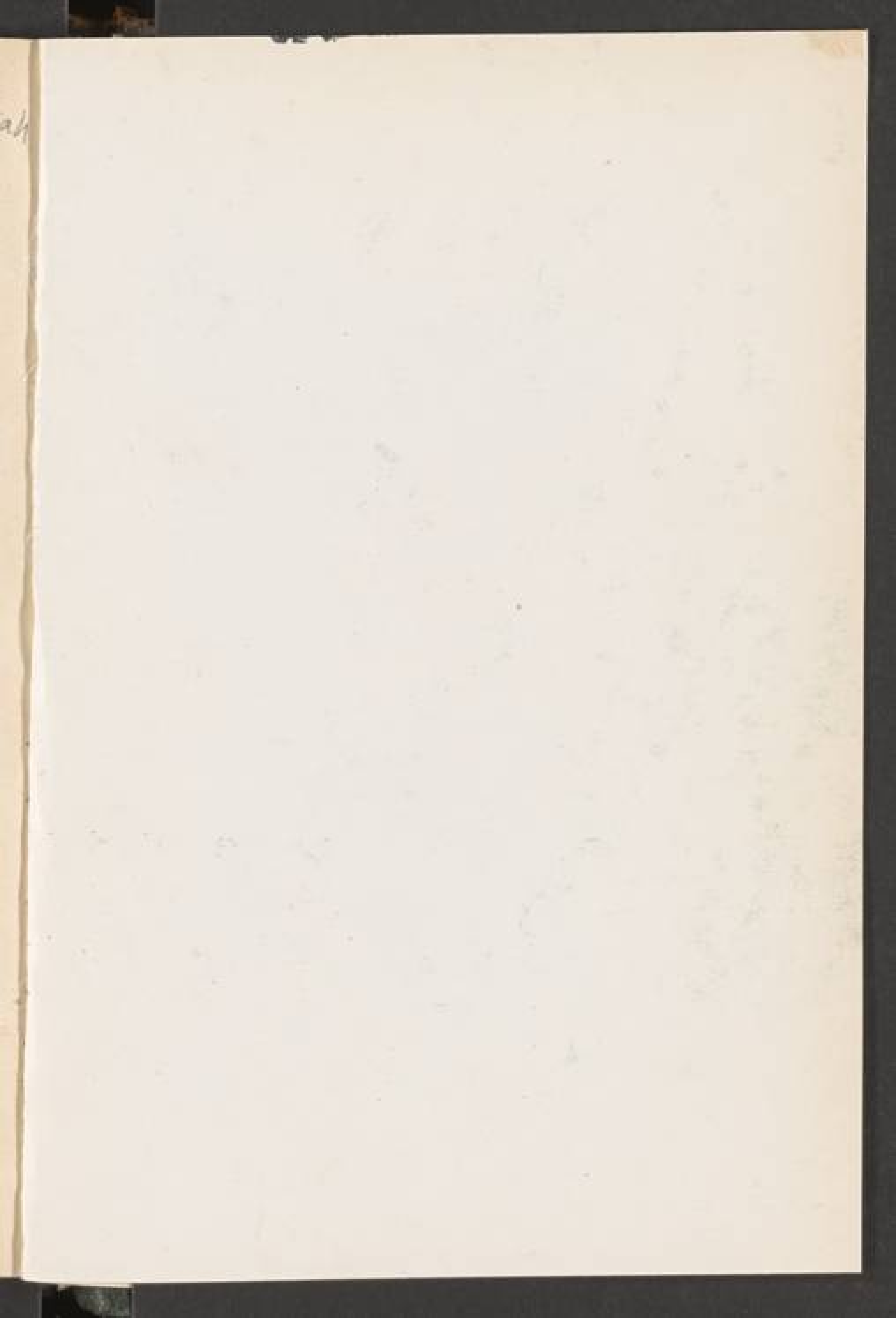


الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

ابو الأعلى المودودي



دار الفكر



ابوالأعلى المودودي

الأسس الاخلاقيّة للحركة الاسلاميّة

دار الفكر – بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فها نحن اولاء نقدم اليوم الى قراء العربية محاضرة جليلة ورسالة نفيسة للاستاذ السيد أبي الأعلى المودودي - امير الجماعة الاسلامية في باكستان. ولعمر الحق، انها محاضرة جليلة المعنى، خطيرة المبنى، لانها تبحث في موضوع هام وتتناول بالدرس والتحليل مسألة طالما أشكل على المفكرين حلها واستعصى على أولي العلم فك معضلتها. وذلك ان الناس - أولاً - يتحيرون في ارتفاع كلمة الكفر وانتكاس راية الاسلام في كل مكان، ثم يشكل عليهم قول الله تعالى: (وأَنتُمُ الأَعلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنِينَ). ويجرهم هذا وذلك الى تأويلات بعيدة واقوال واهية ضعيفة. ومن الناس(١)

---

(١) اشارة الى رجل في باكستان، يتزعم حزباً سياسياً الى الآن، وكتابه (تذكرة) بالعربية والاردية مشحون بمثل هذه الترهات.

من اغتر بهذه الحال وبمثل تلك الآي الكريمة فذهب يقول ان الاوربيين هم المسلمون الحقيقيون لأنهم هم الغالبون ، واسس حزباً وقام بحركة عنيفة ، ثم لم يرجع الا بخفي حنين.

ألقيت هذه الخطبة في مؤتمر الجماعة الاسلامية السنوي المنعقد في الـ ٨ / ٥ / ١٣٦٤ هـ ٣١ / ٤ / ١٩٤٥ م أمام جمع من أعضاء الجماعة وأنصارها والمتأثرين بدعوتها ، في دارها المركزية الواقعة في شرقي بنجاب ، وكان كاتب هذه السطور ممن حضر الاجتماع (المؤتمر) واستمع الى هذه الخطبة المرتجلة ، ولم ينس للآن ما كان لها من أثر عميق في نفوس الحاضرين .

أكتب هذه الكلمة ، وأرى بين يدي صور الاصدقاء والزملاء والاخوان ماثلة ، وعلى وجوههم أثر بما في قلوبهم من التأثر البالغ والتلهف الشديد على صحة الخطيب ومستقبل الدعوة في بلاد الهند ، اذ جاءت في ختام الخطبة كليمات بهذا الشأن . وجملة القول أنها كانت خطبة تاريخية في تاريخ الدعوة وكان لها أثرها المرجو .

قلت انها كانت خطبة مرتجلة ، الا انها دونت في ما بعد ، وأعاد الاستاذ فيها النظر ونشرت بالاردية ، لغة الخطابة والكتابة ولسان عامة مسلمي هذا القطر . وعني بتعريبها

الاخ العزيز السيد محمد عاصم الحداد ، زميلي في دار العروبة ، وراجعها هذا العاجز ، فعسى ان تنال حظوة لدى قراء العربية ويعم نفعها.

والله نسأل ان يوفقنا لسبيل الخير والرشاد ويجنبنا مزالق الاقدام ومسالك الزلل والفساد . فانه هو المرجع وبيده كل شيء وعليه التكلان.

بلدة راولبند (باكستان)
في ٢٣ / ١٢ / ١٣٧١ هـ

مسعود الندوي

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

لعله قد تبين لكم من كتاباتنا ورسائلنا أن غايتنا النهائية التي نقصدها من وراء ماتحن بصدده الآن من الكفاح انما هي « احداث الانقلاب في القيادة » واعني بذلك ان أقصى ما نبتغي الوصول اليه والظفر به في هذه الدنيا ان نطهر الارض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم ، ونقيم فيها نظام الامامة الصالحة الراشدة. فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة الى نيل رضا الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى في الدنيا والآخرة.

ومن دواعي الاسف اننا نشاهد الناس اليوم جميعاً — المسلمين منهم وغير المسلمين — غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا. اما المسلمون ، فلانهم يعدونه غاية سياسية بحتة ولا يكادون يفطنون لمكانته وأهميته في الدين . وأما غير المسلمين ، فبما نشؤوا عليه من التعصب على الاسلام ولجهلهم وقلة معرفتهم بتعاليمه ، لا يعلمون أصلاً أن

قيادة الفجار والفساق انما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري ، وان سعادة البشر وغبطته انما تتوقف على ان يكون زمام امور الدنيا بايدي الصالحين العادلين.

فكل ما نشاهده اليوم في الدنيا من الفساد والظلم والطغيان والفوضى الشاملة العالمية في الاخلاق البشرية ، وما سرى من السم الفتاك في عروق الحضارة والعمران والسياسة البشرية، وان جميع وسائل الارض وسائر القوى التي ابتدعتها العلوم البشرية تستعمل في القضاء على الانسان واهلاكه وتدميره بدل ان تستخدم في اسعاده واعداد الوسائل والاسباب لفلاحه وهنائه وغبطته، فانما تعود تبعة كل ذلك على ان الارض، وان لم تكن خالية من الرجال ذوي الصلاح والعفاف والامانة ، قد استبد بزمام الامر فيها رجال انحرفوا عن الله تبارك وتعالى وانغمسوا باجمعهم في عبودية المادة ، وتكالبوا على شهوات هذه الدنيا الدنيئة . فان اراد احد اليوم ان يطهر الارض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد؛ والامن بالاضطراب؛ والاخلاق الزكية بالاباحية ؛ والحسنات بالسيئات ، لا يكفيه ابداً أن يدعوهم الى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الاخلاق الحسنة ، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة

متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الامـــر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا ، واحداث الانقلاب المنشود في زعامة الارض وامامتها.

اهمية الزعامة وخطورتها :

وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الانسانية، لا يخفى عليه ان المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادهـا ، انما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام امرها. وذلك كما نشاهد في القطار أنه لا يجري الا الى الجهة التي يوجهه اليها سـائقـه ، وان لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً او كرهاً - الى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الانسانية الا الى جهة يوجهه اليها مـن بأيديهم زمام امر تلك المدنية. ومن الظاهر البين ان الانسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الاحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي قد رسمها الذين بأيديهم وسائل الارض واسبابها طراً، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمور وبيدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الانسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجمهور وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الافكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، واليهم المرجـع في تنشئة الطباع الفردية وانشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية . فان كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون

حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره ان يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وان يعود الاشرار الجناة الى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تنمو الحسنات ويزكو غراسها ، واقل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات انها لا تربو ، ان لم تمحق وتنقرض آثارها.

وأما اذا كانت هذه السلطة ، سلطة الزعامة والقيادة والامامة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله واتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة ان يسير نظام الحياة بقضه وقضيضه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب دبيب الفساد والفوضى في الافكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والاخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتنمو السيئات ويستفحل أمرها ، وتأبى الارض ان ترحب بالحسنات ، ويضن الماء والهواء ان يفيضا عليها شيئاً من القوت ، وتمتلىء الأرض ظلماً وجوراً . ففي مثل هذا النظام يسهل على المرء ان يسلك سبيل الشر ويصعب عليه ان يثبت على طريق الخير فضلاً عن ان يمشي عليها ويسير ، شأنه كشأن السائر في موكب من المواكب المحتشدة، لا يحتاج الى بذل اي شيء من الجهد اذا اراد التوجه الى الجهة التي يقصدها الجمع ، بل هو يندفع اليها بدافع من الجمع قصداً ومن غير قصد. واما اذا أراد أن يتوجه الى جهة تخالف

جهة الموكب ، فلا يكاد يقدر على ان يخطو بضع خطوات ولو استنفد فيها وسعه ، ويكون من شأنه أنه كلما تقدم خطوة ، دفعته موجة من الزحام الهائل خطوات الى الوراء .
فكذلك النظام الجماعي اذا بدأ يسير على سبل الكفر والعصيان بزعامة رجال من العصاة سهل على الافراد والجماعات أن يسلكوا سبل الشر من غير ان يبذلوا شيئاً من جهودهم البتة . واما اذا أرادوا السير على طريق غير ذلك الطريق المعوج ، فلا يمكنهم أن يتقدموا ولو بضع خطوات لما يواجهونه من مقاومة الزحام الجارف المعارض الذي يؤخرهم أميالاً وفراسخ الى الوراء مهما استنفدوا من جهودهم للوقوف في وجهه .

وذلك الأمر لم يعد بعد حقيقة نظرية غامضة تحتاج الى برهان ، بل الحوادث الماضية قد صيرته حقيقة ظاهرة لا يمكن الجحود بها أو المكابرة فيها لكل من أوتي بها نصيباً من العلم والمعرفة . وحسبكم شاهداً على ذلك ما حدث في بلاد الهند في القرن الماضي من تبدل عظيم وانقلاب مدهش . أفلا ترون كيف تبدلت الأوضاع وتغيرت الآراء والنظريات وتحولت الطبائع والسجايا المتوارثة ، وتقلبت مناهج التفكير وأساليب النظر ، وطرأ الانقلاب والتغير على مقاييس الاخلاق

والمدنية وموازين الشرف والفخار ؟ فهل بقي فيها شيء سالماً من عواصف التغير والانقلاب ؟ فماذا ترى سبب التغير والانقلاب الواقع في هذه الديار بين عشية وضحاها؟ أو يسعكم ان تبينوا له سبباً غير أن الذين كان بيدهم زمام شؤون هذه البلاد وكانوا متبوئين فيها مناصب الزعامة والامارة طبعوا أخلاق أهلها وعقولهم وغرائزهم ومعاملاتهم ونظام مدنيتهم بطابعهم الخاص ، وصاغوها فيما شاءوا من القوالب المعوجة ؟ ثم سرح النظر في الذين قاموا في وجه هذا الانقلاب ولم يألوا في مقاومته جهداً إلام كان مصيرهم ؟ أوفقوا أم أخفقوا في مسعاهم ، والى اي حد ؟ أو ليس من باب الأمر الواقع المؤلم ان الذين كانوا في طليعة المقاومين بالأمس تجد لليوم أبناءهم وأحفادهم مندفعين في تيار المدنية الحاضرة وقد دخل في بيوتهم من موبقاتها وشنائعها ما كان منحصراً بالأمس خارج البيوت ، في الأسواق والاندية ؟ أو ليس مما وقع وتحقق أن كثيراً من بيوتات العلم والشرف التي يضرب المثل بها وباهلها في الزهد والورع قد نشأت فيها اليوم ناشئة قد افضى بها الضلال والزيغ الى الزندقة والالحاد والكفر بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ أو يبقى عند أحد بعد هذه التجارب المتابعة

والمشاهدات الماثلة للعيان من منزع للشك أن مسألة القيادة والزعامة انما هي مسألة المسائل في الحياة الانسانية وأصل أصولها ؟ وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنها ليست بأمر مستحدث اكتسبتها في هذا العصر ، وانما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الازمنة ، وناهيك من شاهد بالقول السائر « الناس على دين ملوكهم » ومن ثم تكرر في الحديث أن علماء الامة وكبراءها هم المسؤولون عن اصلاح شأنها وفساد أمرها ، لما يمتلكون من ناصية الامر ويحملون بأيديهم من لواء الزعامة .

غاية الدين الحقيقية : اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة :

وأرى أن قد تبين لكم مما تقدم من الشرح والبيان ما لهذه المسألة من الاهمية البالغة في الدين . والظاهر ان أول ما يطالب به دين الله عباده ان يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون الا ما أنزله الله تعالى وجاء به الرسول الامي الكريم ﷺ . ثم ان الاسلام يطالبهم أن ينعدم من الارض الفساد ، وتستأصل شأفة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه .

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الارض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره الا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ؛ يذكرون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتنمين ما يتصدق به هؤلاء الجبابرة عليهم من المسامحات والضمانات. ومن هنا يظهر ما للامامة الصالحة واقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين واسسه . والحق أن الانسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأي عمل من أعماله اذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . ألم تروا ماجاء في الكتاب والسنة وتكرر من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى أن الانسان ليستوجب القتل اذا خرج من الجماعة ولو قيد شعرة وان صام وصلى وزعم انه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه انما هو اقامة نظام الحق والامامة الراشدة وتوطيد دعائمه في الارض . وكل ذلك يتوقف تحققه على القوة الجماعية. والذي يضعضع القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يجني على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالاقرار بكلمة التوحيد . ثم انظروا

الى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى ان القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون الى الأرض منه . ذلك ان « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل اقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به ايمان الرجل واخلاصه للدين ، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يمكنه ان يرضى بتسلط نظام الباطل او يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل اقامة نظام الحق . فكل من يبدو في اعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب فاعلم انه مدخول في ايمانه مرتاب في أمره . فكيف ينفعه عمل من اعماله بعد ذلك ؟

والمقام لا يتسع للافاضة في هذه المسألة وتفصيل القول فيها . الا ان الذي بينته آنفاً اراه كافياً لا يضاح هذه الحقيقة المهمة ، وهي ان اقامة الامامة الصالحة في ارض الله لها اهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حياته في قالب الاسلام ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى

ذلك الايمان ان يستنفد جميع قواه ومساعيه في انتزاع زمام الامر من ايدي الكافرين والفجرة الظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ويرجون حسابه ، ويقوم في الارض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح امور الدنيا وقوام شؤونها.

ثم اذا لم يكن من الممكن تحقق هذا المقصد الاسمى الا بالمساعي الجماعية ، لم يكن بد من ان تكون في الارض جماعة صالحة تؤمن بمبادىء الحق ، وتحافظ عليها ولا تكون لها غاية في الحياة الا اقامة نظام الحق وادارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية . ولعمر الحق انه ولو لم يكن على وجه الارض الا رجل واحد مؤمن ، لما جاز له ان يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل ، حينما يجد نفسه وحيداً فاقداً للوسائل اللازمة ، او ان يحاول التستر وراء الحيل الشرعية كالاقتناع «بأهون البليتين» او ان يساوم نظام الكفر والفجور السائد في ايمانه ، ويقنع بحياة موزعة بين الكفر وطاعة الله . بل الحق انه لا يكون امامه الا طريق واحد : وهو ان يدعو الناس كافة الى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى . فان لم يجب لدعوته احد ، فان قيامه على الصراط المستقيم واستمراره

في دعوة الناس حتى يلقى ربه ، خير له الف مرة من ان يتنكب الصراط الحق ، ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلال والغواية ، او يأخذ في المشي على طرق جائرة بزعامة الكفار . وان وجد من عباد الله رجالاً يستمعون لقوله ويلبون دعوته ، فعليه ان يؤلف منهم كتلة لا يكون من همها الا استنفاد جميع القوى الجماعية في سبيل تحقيق تلك الغاية التي نحن بصددها .

هذا ما اراه مقتضى الدين الالهي حسب ما رزقني الله من معرفة كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما يتطلبه الكتاب العزيز ، وهذه هي سنة الانبياء والرسل . واني على مثل اليقين من ذلك ، ولا اراني متزحزحاً عن هذه العقيدة وهذا الرأي ما دام كتاب الله يؤيدني وسنة الرسل الكرام من ورائي تأخذ بيدي وتحفزني للعمل والجد.

سنة الله تعالى في باب الامامة في الارض :

واذا ادركنا غاية مساعينا ومجهوداتنا هذه ، فعلينا ان نعرف وندرك سنة الله تعالى التي لا نبلغ هذه الغاية الا بموجبها . ان هذا الكون الذي نعيش فيه انما اوجده الله تعالى على قانون معين ، وقدر لكل شيء فيه ضابطة من الامر

لا يمكنه الانحراف عنها . وليس من الممكن ان يتحقق في هذا الكون سعي من المساعي بمجرد الرغبات الطيبة والنيات الخالصة ، ولا ان يـؤتي ثمراته ببركات النفـوس القدسية ، بل لا بد له من استيفاء تلك الشروط والمقتضيات التي قررها القانون الالهي لتحقيق مثل هـذه المساعي . فان كنت زارعاً في حقلك مثلاً ، فمهما تكن قد بلغت من طيب الخلق والسيرة الطـاهرة مبلغاً عظيما وأكثرت مـن التسبيح والتهليل ، فلن تنبت لك حبة ولـن تؤتى ثمرتها إلا إذا اتبعت وراعيت في مسعاك ذلك القانون الالهي الذي سنه الله تعالى لايتاء الزرع والحقول ثمراتها . وكذلك من المستحيل ان يبرز الى الوجود ذلك الانقلاب المنشود في نظـام الامامة الذي جعلتموه نصب اعينكم في الحياة وتتطلع اليه نفوسكم بمجرد الأدعية الطيبـة والأماني المعسولة ، بل لا بد لـكم لتحقيقه أن تحيطوا علماً بذلك القانون الالهي الذي تقوم بموجبه الامامة والسيادة في الأرض وتستوفوا جميع شروطه.

وهذا موضوع مهم ذو خطورة ، قـد الممت به غير مرة من قبل في كتاباتي ومحاضراتي ، ولكني أحب أن أتناوله بالشرح والإيضاح في هذه المحاضرة ، لأنه لا تستبين لنا السبل الا بالاحاطة بها علماً ومعرفة .

إنكم إذا تأملتم في الانسان وتدبرتم وجوده في الدنيا ، ظهر لكم أن وجهتين متناقضتين تختلفان وتزدوجان معاً.

فالوجهة الاولى أن له وجوداً طبيعياً وحيوانياً تجري عليه نفس تلك القوانين التي تجري على سائر الطبيعيات والحيوانات في هذا العالم. وهذا الوجود يتوقف عمله على الادوات والوسائل والاسباب المادية والاحوال الطبيعية التي ينحصر فيها سائر الموجودات الطبيعية والحيوانية . ولا يمكن لهذا الوجود أن يأتي بعمل إلا في ضمن القوانين الطبيعية وبواسطة الأدوات والوسائل والاحوال الطبيعية . وجميع القوى في عالم الاسباب لها تأثير يوافقه أو يخالفه في أعماله.

والوجهة الاخرى التي هي متجلية في الانسان أنه من البشر أي أن له وجوداً خلقياً لا يذعن للطبيعيات بل يسيطر عليها ويحكم فيها. حتى أنه ليستخدم جسد الانسان الحيواني والطبيعي كآلة من آلات العمل ويحاول الاستيلاء على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها. واما قواه العاملة، فإنما هي تلك الصفات الخلقية التي أودعها الانسان من لدن ربه الكريم وانما تحكمه القوانين الخلقية دون القوانين الطبيعية.

الاخلاق مناط رقي الانسان وانحطاطه :

وهاتان الوجهتان تتعاملان في الانسان مشتركتين، وعلى الوجه العمومي يتوقف نجاحه واخفاقه ورقيه وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معاً . وهو لا يكاد يستغني عن القوة المادية ولا عن القوة الخلقية . فإذا ما قدر له النجاح وبلغ أوجَ الكمال والرقي ، فبهاتين القوتين . وإذا ما خسر وانحط ، فلأنه فقد هاتين القوتين أو أصبح نصيبه منهما أقل من نصيب غيره . ولكنكم إذا تأملتم المسألة تأملاً وسبرتم غورها تبين لكم أن القوة المنفذة الفاصلة الحقيقية في الحياة هي القوة الخلقية لا المادية . ولا ريب أن الحصول على الوسائل الماديه واستخدام الآلات الطبيعية ومسايرة الأسباب الخارجية للعوامل الداخلية ايضاًمن الشروط المستلزمة للنجاح . وما دام الانسان يعيش في هذا العالم الطبيعي ، فإنه لا يمكنه الاستغناء عن هذه الشروط . ولكن الحق ، مع كل ذلك ، أن الذي يرفع الانسان ويضعه والذي له الحظ الأوفر واليد النافذة في سعادة الانسان وشقائه ، إن هي إلا « القوة المعنوية » . ومما لا يخفى عليكم أن الانسان لا يسمى إنساناً لأجل جسمانيته وحيوانيته ، بل لأجل صفاته الخلقية . وليس مما يميز الانسان من غيره

من الموجودات في هذا العالم ، أنه يحتاج لجسده إلى محل يحله ، أو لأنه يتنفس ويأتي بالنسل والولد ، بل الميزة التي تفرق بينه وبين سائر الموجودات وتفضله عليها جميعاً ولا تجعله نوعاً مستقلاً عنها فقط بل وخليفة الله في الارض ايضاً ، إنما هي احتيازه للصلاحية الخلقية والتبعة المعنوية وتفرده بهما . فإذا كانت الاخلاق هي جوهر الانسانية وملاك أمرها ، فلا بد من الاقرار بأن الأخلاق لها القول الفصل في صلاح الحياة الانسانية وفسادها. وأن القوانين الخلقية هي التي تسيطر على رقي الانسان وانحطاطه.

فإذا استعرضنا الاخلاق بعد إدراك هذه الحقيقة ، وجدناها منقسمة إلى شعبتين مهمتين : الأخلاق الانسانية الاساسية والأخلاق الاسلامية.

الاخلاق الانسانية الاساسية :

والمراد من الأخلاق الانسانية الاساسية تلك الصفات لتي يقوم عليها اساس وجود الانسان الخلقي . وهي تشتمل على سائر الصفات التي لا بد منها لفلاح الانسان ونجاحه في هذه الدنيا. سواء أكان عمله وكفاحه لغاية صحيحة أو غير صحيحة . وسواء في بابها أيؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة أم لا ؟ وهل هو متحل بالطهارة النفسية

والنية الخالصة والعمل الصالح أم لا ؟ وهل كان سعيه وجهاده وراء غاية طاهرة ومقصد نزيه أم وراء غاية دنيئة وغرض عاجل ؟ فكل من تحلى بهذه الاخلاق واستوعبها في نفسه استيعاباً ، فلا بد ان يرى ثمرات جهوده يانعة عما قريب ويجيء نجاحه في هذه الدنيا كفلق الصبح ، فيبز ويسبق الذين لا يتحلون بهذه الاخلاق ، أو كان حظهم منها أقل وأنقص من حظه . وذلك بصرف النظر هل كان صدره مستضيئاً بنور الايمان أم لا ؟ وهل كانت حياته طيبة ام غير طيبة ؟ وهل يبتغي من وراء سعيه الخير أم الشر ؟ إن الانسان - مؤمناً كان او كافراً ، صالحاً كان او طالحاً - لا يمكن ان ينجح في هذا العالم ويكون في عداد الفائزين ، إلا إذا كانت فيه قوة الارادة والمضاء في الأمر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيقها ، والحزم والحيطة وإدراك العواقب والقدرة على العمل المنظم والشعور بالواجب والاحساس بالمسؤولية والقدرة على تقدير المواقف المختلفة ، والقدرة على صوغه وإفراغه في قوالب مناسبة حسب الظروف المتبدلة ، والقدرة

على تدبير الشؤون وفق تلك الاحوال والظروف ، وكان ملاكا لعواطفه ورغباته ونزعاته النفسية ، وكذلك كان قادراً على استمالة اهواء الناس والاخذ بمجامع قلوبهم وتحبيب نفسه اليهم واستخدامهم في ما يحتاج اليه.

ثم لا بد له من أن يكون متحلياً ولو بلمع من تلك الشمائل الكريمة التي هي ملاك الآدمية وقوام أمرها في نفس الأمر والتي تضمن للانسان الوقار والثقة في هذه الدنيا كالاباء والسخاء والرأفة والمواساة وسعة القلب والنظر والصدق والامانة والنزاهة والوفاء بالعهد وكمال الرزانة والاعتدال والتهذيب والطهارة والنظافة وضبط النفس والذهن.

هذه هي الصفات التي إذا حازها واستوعبها معظم افراد أمة من الامم او جماعة من الجماعات ، فكأنها عندها ثروة الانسانية ورأس مالها . فان هذه الثروة هي التي تتكون على أثرها قوة جماعية قوية فعالة ، الا ان هذه الثروة لا يمكن ان ترتكز وتتجمع بنفسها وتنقلب الى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الامر الواقع، الا إذا ساعدتها على أمرها جملة من الصفات الخلقية الاخرى ، وذلك مثل أن يكون جميع الأفراد او معظمهم متفقين على غاية لهم مشتركة بعينها وكانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية بل من نفوسهم

وأموالهم وأولادهم ، وكانوا متمتعين بالتحاب والمواساة في ما بينهم ، وكانوا متعاونين على الخير متساندين على البر ، وكانوا ، على الأقل ، ممن يضحون بأثرتهم وذاتيتهم إلى حد لا بد منه لسعي جماعي منظم ، ثم يميزون القائد الراشد من القائد المضل ، ولا يلقون اعباء قيادتهم وسيادتهم الا على كواهل رجال يصلحون لها ، وكان قوادهم وزعماؤهم متحلين بصفات الاخلاص وحسن التدبير وما اليها من الصفات الاخرى المستلزمة للقيادة ، وكانت الامة او الجماعة انفسهم يعرفون طاعة قوادهم ويثقون بهم ويتطلعون إلى جعل جميع وسائلهم ومواهبهم الفكرية والجسمانية والمادية تحت تصرفهم ، وكان فيهم من الرأي العام الحي الفعال ما لا يسمح بأن ينشأ فيهم شيء يمس بكيانهم ويهدد فلاحهم الجماعي .

فاذا كانت امامك غاية صحيحة منزهة ، فانما تحتاج إلى سلاح من الحديد لا من الخشب الذي اكلته الارضة ولا قبل له بتحمل شيء من الضرب الخفيف . وهذا ما اشار اليه نبينا الكريم ﷺ بقوله : (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام) (١) اي ان الذي كان فيهم الجوهر الثمين في

---

(١) كما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة بطرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا . (باب المناقب) .

الجاهلية ، إنما هم الذين نفعوا الاسلام واثبتوا انهم اكفاء للاضطلاع بكل امر من امـــوره . وغاية ما حدث فيهم من الفـرق انـه كانت مواهبهم وقـوامم تستعمل في طرق الشـر والمعصية ، فجاء الاسلام ووجهها الى طريق الرشد والخير. والحاصـل ان نفـايات القـــوم وحثالاتهم ما كان ليرجى منهم النفع لا في الاسـلام ولا في الجاهليـة . ان الظـفر العظيم والفتح المبين ــ الذي ناله النبي ﷺ في العرب والذي لم يمض عليه الا مدة يسيرة ، حتى احس جزء عظيم من المعمورة من نهر السنـد إلى بحر الاطلسي بنفـوذه وآثاره البالغة ــ أوَ كان لكل ذلك سبب غير انه ﷺ ظفر في جزيرة العرب بأحسن ذخيرة من الكفاءة الانسانية والاستعداد البشري بمن كانوا يملكون قوة مسخرة من السيرة الفردية والطباع المستقيمة. ارايتك انـه لو كان ظفر ﷺ من اصحابـه برجال ساقطي الهمة متزعزعي الارادة بمن لا يوثـق بهم ولا يعـول عليهم فهل كان يحصل منهم على نتائج مثل تلك النتائج الباهرة التي حصل عليها.

الاخلاق الاسلامية :

ولنتناول الآن الشعبة الثانية للاخلاق ، وهي التي أعـــبر

عنها بالاخلاق الاسلامية ، وما هي بشيء مستقل عن الاخلاق الانسانية الاساسية بل هي متممة لها ومكملة اياها . فأول عمل يأتي به الاسلام أنه يزود الاخلاق الإنسانية بمركز صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حوّلها إلى الخير والرشد برمتها . وليست هذه الأخلاق في صورتها الأولى إلا قوة مجردة يمكن استخدامها في الخير والشر معاً ، وإنما مثلها كمثل السيف الصارم هو آلة للظلم والإرهاق والجور إن كان في يد اللص السارق ، واداة للخير والحق ان كان في يد المجاهد في سبيل الله . فلا يحكم على هذه الأخلاق بالخير والصلاح لمجرد وجودها في فرد معين أو جماعة بعينها ، بل يتوقف خيرها وصلاحها على كونها مستخدمة في السبيل الاقوم ، فالاسلام يعنى بتوجيه هذه الأخلاق المحضة إلى طريق الخير والحق . ومن المقتضيات المستلزمة لدعوة الاسلام إلى التوحيد أن لا تكون الغاية الوحيدة والمقصد الجوهري من وراء جهود الانسان ومساعيه الا ابتغاء وجه الرب تعالى (١) وان يحدد أفق فكرته ونطاق عمله بحدود عينها له ربه

---

(١) كما أشير إلى هذا المعنى بـ (و إليك نسعى ونحفد) في الدعاء المأثور المعروف .

الجليل (١) . فمن النتائج اللازمة لهذا الاصلاح الاساسي ان جميع الاخلاق الاساسية التي قد ذكرناها لكم آنفاً تتجه إلى الطريق المستقيم ، وأن القوى التي تتولد بوجود هذه الاخلاق لا تستعمل ولا تنفذ الا في سبيل اعلاء كلمة الحق الناصع بالطرق المباحة ، بدلاً من ان تستعمل في سبيل النفس أو الاسرة أو الامة او الوطن بطرق جائزة وغير جائزة. وهذا هو الذي ينهض بهذه الاخلاق – على الوجه الايجابي – من مرتبة القوة المجردة ويحولها خيراً شاملاً ورحمة للعالمين.

والمهمة الثانية التي يأتي ويعني بها الاسلام في باب الاخلاق ان يؤصل الاخلاق الاساسية الانسانية ويوطد اركانها في جانب، ويوسع في تطبيقها على مظاهر الحياة الانسانية إلى حد عظيم في جانب آخر. وخذ لذلك الصبر مثلاً. فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر واستولى على الامد في حلبته ، فلا بد له ان يقف تحمله وينفد ثباته عند حد معلوم اذا كان لاغراض عاجلة ليستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك وعبودية المادية . اما الصبر الذى يستجلب قوته من جذور التوحيد

---

(١) وإلى هذا المعنى اشير بـ (إياك نعبد ولك نصلي ونسجد) في الدعاء نفسه.

والذي لا يبتغي من ورائه الا وجه الله تعالى ، فهو كنز مكنون لا تصل اليه يد السارق ، وجيش عرمرم من الثبات والبسالة لا يقدر ان يقف في وجهه سائر الشدائد والاهوال الممكنة في هذه الدنيا. ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع محدود ضيق جداً ، فبينما تراه خائضاً غمار المعركة ثابتاً امام هجمات الرشاشات والقنابل ثبوت الجبال الراسيات ، إذا به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجامحة لا يكاد يملك نفسه وعواطفه امام هزة يسيرة من هزات الغريزة الثائرة . اما الاسلام ، فيطبق الصبر ويوسع في تطبيقه على سائر الحياة الانسانية ، ولا يجعله سداً منيعاً ومعقلاً حصيناً دون اخطار واهوال معدودة فقط ، بل دون كل ما يحاول تنكيب الانسان عن الصراط المستقيم من المطامع والاخطار والوساوس والرغبات . والحقيقة ان الاسلام يطبع حياة المؤمن بطابع من الصبر والاناة التي من مبادئها الاساسية ان يظل قائماً على طراز صحيح مستقيم من الفكر والعمل طول حياته مهما لقي في ذلك من الاخطار والاهوال والشدائد ، ولم يتراء له بارقة امل من النتائج النافعة في هذه الحياة الدنيا ، وان لا يختار طريقاً معوجاً من الفكر والعمل بأية حال ، وإن لمحت له جنة

وارفة من الأحلام العذاب ، والاماني المعسولة والمنافـــع المأمولة . فهذا الابتعاد عن الشر والمواظبة على طريق الخير والرشد طول الحياة الدنيا احتساباً لنتائج الآخرة وعواقبها اليقينية ، هو الصبر الاسلامي . وكذلك يكون ذلك الصبر بطبيعة الحال في تلك الاشكال التي ترى في حيـــاة الكفار على نطاق محدود . ولك ان تقيس عليه سائر الاخلاق الاساسية التى نشاهدها ضعيفة محدودة في حياة الكفار لما يعوزها من أساس فكري صحيح . فالاسلام يتناول هذه الاخلاق كلها ويسعفها بأساس صحيح محكم من عنده ويوسع دائرة نفوذها.

والمهمة الثالثة التي يقوم بها الاسلام انه ينظر إلى الاخلاق الاساسية العامة كأنها الطبقة الاولى من البناء ، فيشيد عليها الطبقة الثانية من الاخلاق الفاضلة ، حتى ليرتقي بها الانسان إلى اعلى درجات الشرف والكمال وهو يطهر قلبه من أدران الاثرة والانانية والظلم والوقاحة والخلاعـة والاستهتار ، ويلقي في روعه بذرة تقوى الله وخشيته تعالى ، والورع واتباع الحق ، ويذكي فيه قبس الشعور بالتبعات ، ويروضه على التخلق بضبط النفس ، ويجعله جـــواداً كريماً ودوداً

مواسياً ناصحاً اميناً مخلصاً عادلاً صادقاً لخلائق الله جميعاً في كل حال ، ويربيه وينشئه على سيرة طاهرة سامية لا يرجى منها إلا الخير ولايخشى منها الشر أبداً ، ثم ان الاسلام لا يقتصر على ان يجعل الانسان صالحاً راشداً في ذات نفسه ، بل يجعله فوق ذلك « مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر » كما ورد في الحديث النبوي (١) . اي انه يفوض اليه وينيط به — على الوجه الايجابي — مهمة تعميم الخير واستئصال شأفة الشر في ارض الله . وفي طبيعة تلك الاخلاق والسيرة من الحسن والجذب وقوة التسخير البالغة ما إن تحلت به جماعة منظمة وسعت سعيها في القيام بما القى الاسلام على كاهلها من مهمة الدعوة اليه ، فلا قبل بمواجهتها ومقاومتها لقوة من قوى الدنيا كلها .

جماع القول في سنة الله في باب الامامة :

هذا وأريد الآن أن أبين لكم بكلمات موجزة تلك السنة التي سنها الله تعالى في باب الامامة والتي مازالت نافذة

---

(١) عن سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : طوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر . وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير . (مشكاة المصابيح ، كتاب الاداب ، باب الرقاق)

من الازل وستبقى جارية ما دام النوع البشري حياً قائماً على فطرته في هذه المعمورة ، فها كم اياها :

١ – إذا لم تكن في الارض طائفة منظمة متصفة بكل من الاخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية وهي تستخدم – مع ذلك – الوسائل والاسباب المادية ، فلا بد ان يسلم زمام القيادة والسيادة في العالم الى طائفة تكون اكثر جمعاً واحتيازاً للاخلاق الاساسية الانسانية والاسباب المادية من غيرها وذلك بأن قد جرت مشيئة الله ان يبقى نظام هذا العالم جارياً مطرداً على كل حال ، فمن ثم يفوض امر ادارته وتسيير دفة شؤونه الى اعظم الطوائف المعاصرة قدرة واكثرها كفاءة.

اما إن كانت في الارض فئة منظمة تمتاز من بين سائر الفئات الموجودة وتفضلها جميعاً في الاخلاق الاسلامية والاخلاق الانسانية العامة معاً ، ثم لا تقصر في الوقت نفسه في استخدام الاسباب المادية حق استخدامها ، فمن المستحيل عندئذ ان تتسلم ازمة قيادة الارض وتتمتع بسيادتها فئة اخرى بازائها ، فان ذلك مما يناقض فطرة الكون ويناقض سنة الله التي سنها في الشؤون البشرية ، ويناقض مواعيده

التي وعد بها المؤمنين الصالحين من عباده في غير موضع من كتابه العزيز . والله تعالى لا يحب الفساد في ارضه ، واي فساد اشنع وابشع من ان ينقاد زمام امور الارض لفئة تعيث فيها وتملؤها ظلماً وجوراً ، مع ان فيها فئة صالحة قادرة على تسيير دفة حكمها طبقاً لمشيئة الرب ومرضاته تعالى .

ومما ينبغي ان لا يغيب عن البال ان نظام الاستخلاف في الارض لا يمكن ان يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح او افراد صالحين مشتتين في الدنيا ولو كانوا في ذات انفسهم من اولياء الله تعالى بل ومن انبيائه ورسله . ان الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لافراد متفرقين مشتتين ، وانما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الادارة والنظام قد اثبتت نفسها – فعلاً – امة وسطاً ، او خير امة في الارض .

وكذلك ينبغي ان يكون منكم على ذكر بهذا الصدد ، ان نظام الامامة لن يحدث فيه اي تغير ولا انقلاب بمجرد وجود فئة مثل هذه في الارض ، بحيث انها اذا تألفت واخذت في الوجود مكانها ، تنزلت من السماء الملائكة ونحت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوؤوه هؤلاء الصالحين المؤمنين . بل مما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤلفة ان تستمر

في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا وتثبت ما في نفسهامن حب الحق و كفاءة للاضطلاع باعباء إمامة الأرض يبذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق . وذلك شرط لم يستثن منه حتى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فاني لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه.

الفرق بين قوة الأخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية :

والذي قد أرشدتني إليه دراستي للقرآن الكريم والتاريخ والامعان فيهما أن لله سنة مطردة في باب التوازن بين القوتين المادية والخلقية ، وهي أنه إذا كانت القوة الخلقية بتمامها مرتكزة في الاخلاق الانسانية الاساسية ، فهناك للوسائل المادية أهمية عظيمة ، حتى إنه من الممكن إذن أن يستتب الأمر في الأرض لفئة لها النصيب الأوفر من الوسائل المادية ولو لم يكن عندها إلا قليل من القوة الخلقية ، على حين أن الفئات الاخرى التي قد تفوقها في القوة الخلقية تكون مغلوبة على أمرها لقلة الوسائل المادية فحسب . أما إذا كانت القوة الخلقية مدججة بأسلحة من الاخلاق الاساسية والاسلامية معاً ، فهناك لا بد أن تتغلب الاخلاق

ـ على قلة الوسائل المادية عندها ـ على سائر القوى التي لم تقم ولم تبرز إلى الميدان إلا مستندة إلى الاخلاق الاساسية والاسباب المادية فقط. ولك ان تدرك هذه الحقيقة عن هذا الفرق النسبي بين القوتين بأنه إذا كانت الاخـــلاق الاساسية تحتاج إلى مائة درجة من الوسائل المادية، فالاخلاق الاسلامية والاساسية متحدة لا تحتاج في هذا الموقف نفسه إلا إلى ٢٥ درجة من تلك الوسائل المادية، والذي يبقى من الخمس والسبعين درجة من قوتها المادية، تستكملها الاخلاق الاسلامية بدافعها النفسي الكامن في طبيعتها. بل الذي تعلمنا تجارب العهد النبوي انه إذا كانت الاخلاق الاسلامية على ما كانت عليه اخلاق النبي ﷺ واصحابه الكرام ـ رضوان الله عليهم اجمعين ـ فان خمس درجات من الوسائل المادية تقوم مقام مائة درجة منها. وإلى هذه الحقيقة قد اشار القرآن الكريم بقوله: « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ. »(١)

والذي ذكرت لك الآن، لا اقوله عن حسن عقيدة في شخص النبي ﷺ واصحابه فحسب، ولا يذهبن بك

---

(١) « الأنفال ٦٥ ».

الظن إلى اني اقص عليك شيئاً من قبيل المعجزات والكرامات، لا ، لا ، بل هي حقيقة فطرية ثابتة تحدث في هذا العالم ـ عالم الاسباب والعلل ـ وفق قانون العلة والمعلول ، ويمكن تحققها كلما وجدت علتها وقبل ان اتقدم في البحث يجمل لي ان اشرح لكم على وجه الايجاز كيف تقوم الاخلاق الاسلامية ـ وهي متضمنة للأخلاق الاساسية بطبيعة الحال ـ مقام ٧٥ بل ٩٥ درجة من القوة المادية.

لكم ان تدركوا هذه الحقيقة بانعام النظر في الصورة العالمية الحاضرة اليوم ، فان الفساد العظيم الذي كانت قد اشتعلت وتأججت نيرانه قبل ست سنوات ، قد انتهى اخيراً بانهزام ألمانيا ، وتكاد رحى الحرب تدور على اليابان بالهزيمة ايضاً (١) . فالذي لا مجال فيه للريب ان الفريقين متساويان في الاخلاق الاساسية تقريباً ، بل الذي يظهر من بعض الوجوه ان المانيا واليابان أتتا بما يدل على تفوقهما في القوة الخلقية الاساسية بازاء الحلفاء . وكذلك إذا وازنا بين الفريقين في العلوم الطبيعية وطرق استخدامها ،

---

(١) كتبت هذه الرسالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قبيل استسلام اليابان .

وجدنا كلا منهما يناهض الآخر ويماثله ، بل الذي لا يخفى على احد ان المانيا - إن لم نقل اليابان ايضاً - كان لها قصب السبق على سائر الدول العالمية في هـــذا الباب. غير ان هناك شيئاً واحداً فاق فيه احد الفريقين على الآخر فوقاً عظيماً ، الا وهو ملاءمة الوسائل المادية وموافقتها. فلم ينتصر المنتصر إلا لما كان لديه من الرجال والعدة والعتاد والوسائل المادية الاخرى اضعاف ما كان عنـــد قرينه. واضف إلى ذلك موقعه الجغرافي المنيع الذي لم يتيسر لقرينه ، وكذلك ما انعمت به عليه الاسباب التاريخية من ظروف واحوال لم تكن لقرينه. فلايكاد يكون من المتوقع اليوم أن تقوم امة قليلة العدد والعتاد في وجه امة قوية عندها وفرة عظيمة من الوسائل والاسباب المادية ، ولو كانت اسبق منها في التحلي بالاخلاق الاسلسية واعرف منها باستخدام العلوم الطبيعية ، وذلك ان كل امة تجعل نهضتها على قواعد من الاخلاق الاساسية والعلوم الطبيعية لا تخلو حالها من امرين : إما ان تكون غارقة في قوميتها طامحة ببصرها إلى تسخير العالم واحتجانه لمصلحتها ، وإما ان تكون حاملة بيدها لواء بعض مبادىء عالمية داعية اليها سائر امم الارض.

ففي الصورة الاولى لا يمكن ان تنال مبتغاها وتبلغ مرادها إلا إذ كانت اوفر الامم واكثرهـا حظاً من الوسائل والقوى المادية. وذلك ان سائر الامم التي تكون عرضة لمطامحها وجشعها الاستعماري ، لا بد ان تقوم في وجهها وتستميت في مقاومتها وتتقد بنار الغضب والنفور في مطاردتها . اما الصورة الثانية ، فلا شك انه من الممكن فيها ان تسخر فكرتها ونظريتها عقـول الأمم وأذهانها فتستلم لدعوتها الانقلابية ، ولا تحتاج لنيل مبتغاها إلا إلى قليل من القوة المادية . ولكن الذي ينبغي ان لا يغيب عن الالباب ان القـلوب لا تذعن لها بمجرد المبادىء العذبة والقواعد المعسولة بل لا بد لمن يرغب في تسخيرها أن يثبت أنه غذي بلبان النصح والصدق والامانـة والطهارة ورحابة الصدر والسخاء والمواساة والشرف والعدل ـ أن يثبت انه قد ترعرع في حضن هذه الاخـلاق الفاضلة الحقيقية التي تتحقق ناصعة غير مشوبة بأدران الاغراض الدنيئة في الحرب والسلم والانتصار والانهزام والصداقة والعداوة وما إليها من الاحوال الطارئة والمحن التي تعتور الحياة الانسانية ، هذه الاخلاق الفاضـلة التي هي أسمى وأسنى من الاخلاق الاساسية العامة . ومن ثم تشاهدون

اليوم أن كل أمة تقوم نهضتها على دعائم الاخلاق الاساسية والقوى المادية المجردة ، لا بد أن تؤول جهودها ومساعيها كلها الى الاغراض والأثرة الفردية أو الطائفية أو القومية الخالصة ، سواء أكانت قد جهرت بخطتها القومية أو اخفتها وراء ستار دعوة عالمية تحمل لواءها وتدعي الذود عن مبادئها ، كما تشاهد اليوم بأم عينك في السياسة الخارجية للدول الاميركية والانكليزية والروسية ، فالظاهر في مثل هذا الكفاح والصراع ان تقوم كل امة في وجه امة اخرى وتحول بينها وبين تحقيق آمالها ومطامحها وتبذل بذل المستميت كل ما اوتيت من القوى المعنوية والمادية في نضالها وكفاحها ، وتأبى ان تسمح لها ان تشق الطريق لرقيها من بين ارضها ، اللهم إلا إذا غلبت عليها بوسائلها المادية الموفورة وطحنتها طحناً .

هذا ، وتمثلوا في مثل هذه الحال ان هناك فئة ، ولو كان منشؤها في اول الامر في امة من الامم ، إلا انها قد ظهرت بمظهر الجماعة ، والحزب ، لا بمظهر الطائفة في هذه الدنيا ، وهي منزهة من الاغراض الشخصية الطبقية او القومية وهي لا تبتغي من وراء جميع ما تبذل من المساعي

والجهود إلا ان تقيم في هذه الدنيا نظام الحياة الانسانية على اساس مجموعة من الاصول والمبادىء التي تؤمن بها ، ولا ترى سعادة النوع البشري وهناءته مضمونة الا في اتباعها والسير عليها ، وكذلك لا يشوب المجتمع الذين تؤلفه هـذه الفئة اي شائبة من شوائب الفروق والامتيازات القومية او الاقليمية او الطبقية او النسلية ، ومن الممكن ان ينضم اليه وينخرط في سلكه جميع ابناء البشر بحقوق متساوية ومنزلة متماثلة ، وان ينال فيه منصب القيادة والامامة اي فرد او مجموعة من الافراد ، فاق سائر الافراد في اتباع هذه المبادىء والاصول والتحلي بمقتضياتها ، بقطع النظر عن قوميته النسلية او الاقليمية . بل قد يمكن في هذا المجتمع ان المغلوب على امره اذا آمن بهذه المبادىء واثبت نفسه اصلح واكفأ للاضطلاع بالامور من الذي فتح بلاده وانتصر عليه ، يأتي هذا الفاتح ويسلم اليه جميع ثمرات مساعيه ويرضى به إماماً لنفسه يقتدي به ويأتمر بأوامره. فاذا قامت هذه الفئة ودعت الناس بدعوتها ، قام في وجهها الذين لا يرضيهم انتشار مبادئها في الارض والقوا في سبيل سيرها ورقيها العراقيل والعقبات . فوقتئذ يبتدىء

الصراع والمنازعة بين القوتين . فكلما تزداد هذه المناضلة شدة واشتباكاً تزداد هذه الفئة صبراً ومراساً وتأتي بازاء عدوها باشرف الاخلاق وافضلها وتثبت بسلوكها وخطتها العملية انها لا تبتغي من وراء جهودها إلا سعادة جميع خلق الله . وهي لا تحارب ذوات أعدائها ولا قوميتهم وإنما تحارب ضلالتهم ومناهجهم الزائغة التي لو تركوها لأصبحوا اخواناً لهم متحابين فيما بينهم . وهي لا تطمع في اموالهم وثروتهم ، ولا تريد ان تضع يدها على تجارتهم وصناعتهم ، وإنما تحرص كل الحرص على هدايتهم وتطمع كل الطمع في سعادتهم الخلقية والروحانية التي إذا نالوها وظفروا بها ، فهم احق بثروتهم وبكل ما لديهم . وهي لا تستخدم الكذب والخديعة والمكر السيء ، ولا في احرج المواقع واشدها ، وهي تدفع السيئة بالحسنة ولا ترد على المؤامرات الدنيئة إلا بالحيل والتدابير الشريفة ، ولا تكاد تحملها سورة الانتقام والثأر على الجور والاعتداء ، وهي لا تقعد عن اتباع ما قامت لدعوة الناس إليه من المبادىء حتى في اشد مواقف الحرب واكثرها خطورة ، ولا تنفك قائمة في كل الأحوال على الصدق والوفاء بالعهد وحسن المعاملة والاستمساك

بالعدل ، وتثبت نفسها مستوفية لشروط الامانة والنزاهة العليا التي كانت عرضتها على الدنيا في اول امرها مقياساً لها . وكلما التقى في ميدان الحرب الفريقان واصطفا وجهاً لوجه : الزناة والمدمنون للخمر والمقامرون والجفاة الغلاظ من جنود الاعداء في جانب ، والاطهار والاتقياء والعابدون الصالحون والمجاهدون الرحماء من رجال هذه الفئة في جانب ، تظهر مروءة كل رجل من هؤلاء الاطهار وانسانيتهم العالية ويبرز للعيان سموها وتفوقها على توحشهم وهمجيتهم ، وحينما يتسنى لاولئك ان يأتوا إلى هؤلاء جرحى او اسرى بعد الحرب ، تأخذ ارواحهم الخبيثة المدنسة بادناس الكفر والضلال في التطهر من ادرانها شيئاً فشيئاً لما يرون في هذا المجتمع من الخير والشرف والعلو والطهارة في الاخلاق. واما إذا اسر افراد هذه الفئة ووقعوا في ايدي عدوهم ، يزداد صقلاً وانجلاء في هذا المجتمع المظلم ما في انفسهم من جوهر الانسانية . واذا كتب لهم الاستيلاء على قطر من اقطار الارض ، يلقى منهم اهله العفو مكان الانتقام ، والمرحمة والنصفة مكان الظلم والعدوان ، والمواساة مكان المجافاة ، والحلم والتواضع مكان الغطرسة والكبرياء ، والدعاء مكان السباب ، والدعوة إلى المبادىء الحق مكان الدعايات

الكاذبة الملفقة ، ولا يكادون يقضون عجبهم حينما يشاهدون ان الفاتحين الامناء لا يطلبون منهم النساء ، ولا يبحثون عن اموالهم المخبوءة ، ولا يتجسون لاكتشاف اسرار صناعتهم ، ولا يتفكرون في القضاء على قوتهم الاقتصادية ، ولا يستخفون بكرامتهم القومية ولا يمسونها بسوء ، بل الذي يهمهم قبل كل شيء ان لا تنتهك حرمة لاحد من اهالي البلاد التي قد تولوا امرها ، ولا يصاب احد منهم في ماله ، ولا يحرم حقاً من حقوقه المشروعة ، ولا تنشأ فيهم رذيلة من الرذائل الخلقية ولا تبقى فيهم المظلمة الاجتماعية في اي شكل من الاشكال ، وبالعكس من ذلك فكلما احتجز الفريق المخالف بقعة من بقاع الارض ، ارتفعت شكوى سكانها من مظالمه واعتداءاته ، ونادت بالويل والثبور . ولك ان تتمثل بنفسك مبلغ ما يحدث في مثل هذه الحرب من الفرق العظيم بالنسبة الى الحروب والمعارك القومية ، ولا بد ان تهزم الانسانية السامية في مثل هذه الحرب على قلة وسائلها واسبابها المادية همجية اعدائها المحصنة بالحديد والمدججة بآلات الدمار والهلاك ، وان تغلب اسلحة الاخلاق الفاضلة المدافع والقنابل ، وان ينقلب الاعداء اصدقاء في عين الوقت الذي يكون وطيس الحرب فيه حامياً مضطرماً وان تنهزم

القلوب وتنفتح قبل الاجساد ، وان تدخل الاقطار تلو الاقطار في حوزة ملكها بدون ادنى مشاكسة او محاربة ، وان هذه الفئة الصالحة عندما تقوم بأمرها وتشمر عن ساق الجد في تحقيق مهمتها بعدد قليل من رجالها ، ونزر يسير من عتادها ، فلن تزال تحرز وتستكمل شيئاً فشيئاً كل ما تحتاج إليه من القواد والجنود والحذاق والمهرة في فنون الحرب ، وكذلك الاسلحة والذخائر وادوات الحرب من معسكرات الاعداء وثكناتهم انفسهم .

وإني لا اقول كل ذلك بناء على مجرد الحدس والتخمين . بل إنكم إذا اجلتم النظر في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، تجلى لكم بدون ادنى شك ولا ارتياب ان هذا كله قد وقع وشهد عليه التاريخ من قبل ويمكن ان يتحقق اليوم بشرط ان ينبري لهذه التجربة رجال فيهم الجراءة والحمية والحماسة الكافية .

لعلكم قد ادركتم مما تقدم من البيان ان منشأ القوة ومنبعها الاصلي هو القوة الخلقية . وإن كان في الارض اليوم فئة منظمة متصفة بالاخلاق الاسلامية والاخلاق الاساسية كلتيها ، فمن المستحيل عقلاً والمتعذر طبعاً ان تتمتع بسيادة الارض وتتمسك بأزمة امورها فئة غير هذه الفئة . وكذلك

أراك قد فطنت لما هو السبب الجوهري لتأخر المسلمين وانحطاطهم في العالم اليوم. ومن الظاهر البين انه لا يمكن ان تبقى متمتعة بسيادة الارض وزعامتها وقيادتها امة لا تستخدم الوسائل المادية ولا الوسائل الاساسية ، ولا تتزين بالاخلاق الأساسية ، ولا توجد فيها بصفة جماعية الاخلاق الاسلامية . ومن مقتضى السنة الالهية التي لا تتبدل ولا تتغير ان تؤثر فيهم امم كافرة قد اثبتت ولا تزال تثبت انفسها اكثر كفاءة منها في الاخلاق الاساسية واستخدام الوسائل المادية لادارة شؤون الارض وتسيير دفتها وإن كانت مجردة عن الاخلاق الاسلامية . فان كان في نفوس المسلمين شيء من الملل والضجر من هذه الحال فليلوموا انفسهم لا سنة الله ، وليكن من نتيجة ذلك ان يفكروا ويجتهدوا في تدارك ذلك النقص الذي قد أخرهم ونحاهم عن قيادة الأرض وجعلهم مطية ذلولاً لكل قاهر مستبد.

أربع مراتب للأخلاق الإسلامية

وهذا الذي نعبر عنه بالاخلاق الاسلامية ، يشتمل بموجب القرآن والسنة على اربع مراتب هي : الايمان والاسلام والتقوى والاحسان . وهي كلها مرتبة ترتيباً فطرياً بحيث ان كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها . فما دامت الطبقة الاولى منها غير محكمة متقنة ، لا يكاد يخطر بالبال ان تبنى عليها الطبقة الثانية . فالايمان بمنزلة الأساس في هذا البناء ، وهو الذي تقوم عليه طبقة الاسلام ، ثم تُشيد على طبقة الاسلام طبقة التقوى فطبقة الاحسان . والذي يبدو من ذلك أنه ما دام الايمان ـ وهو اساس الاسلام والتقوى والاحسان ، كما عرفت ـ منعدماً ، لا يمكن وجود الاسلام او التقوى او الاحسان بوجه من الوجوه . وكذلك ما دام الايمان ضعيفاً متزعزعاً ، يستحيل ان يشيد عليه أي بناء من الابنية ، وإن شيد فلا يخلو من أن يكون ضعيفاً متزعزع الاركان متداعي القواعد والاسس . و كذلك إذا كان الإيمان ضيقاً محدوداً فلا بد للاسلام والتقوى والاحسان جميعاً ان تحد بحدوده ولا تعدوه ابداً . فما دام الايمان والاحسان غير صحيح محكم واسع الاكناف

والجوانب ، لا يكاد يخطر ببال رجل له شيء من الالمام بالدين ان يشيد عليه بناء الاسلام او التقوى ، او الاحسان ، وكذلك مما لا بد منه ان يهتم باصلاح الاسلام واتقانه وتوسيعه قبل التقوى ، وبإصلاح التقوى وإتقانه وتوسيعه قبل الإحسان ولكن كثيراً ما نشاهد الناس اليوم قد نسوا هذا الترتيب الفطري ولا يأبهون له فيشرعون في تشييد صرح التقوى والاحسان قبل ان يوطدوا لها اسس الايمان والاسلام ، واشد من ذلك مبعثاً للاسى والاسف ان الناس قد رسخ في اذهانهم تصور محدود للايمان والاسلام ، فيزعمون انهم يستكملون تقواهم ويبلغون اعلى درجاته إذا افرغوا هندامهم وزيهم وجلوسهم وقيامهم واكلهم وشربهم وما اليها من الاعمال الظاهرة الاخرى في قالب معين ، ثم يفوزون بأعلى درجات الاحسان اذا اختاروا لأنفسهم قدراً معيناً من النوافل والاذكار والاوراد وغيرها من الاعمال المستحبة شرعاً . ولكن كثيراً ما تشاهدون في حياة هؤلاء المتقين المحسنين بزعمهم امارات تشهد شهادة ناطقة بانهم لم يؤسسوا بعد صرح الايمان على اساس متين محكم . فما دامت هذه الاخطاء باقية ، فلا رجاء في نجاحنا في استكمال ادوات الاخلاق الاسلامية ابداً . فإذن لا بد

لنا من استكمال تصور المراتب الاربع : (الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان) وادراك ما فيها من ترتيب طبيعي فطري .

الايمان :

فلنبدا بالإيمان الذي هو الاساس للحياة الاسلامية . ولا يخفى على احد ان الايمان عبارة عن الاقرار بالتوحيد والرسالة . فاذا ما اقر بها المرء استوفى الشرط القانوني لدخول المرء في الاسلام واصبح من عداد المؤمنين . فإذن يكون من حقه ان يعامل معاملة المسلمين . ولكن هل يكفيه هذا الاقرار المجرد ـ الذي لا يعدو استكمال اداة قانونية ـ في ان يشيد على اساسه صرح الحياة الاسلامية بطبقاته الثلاث الباقية ؟ ومن دواعي الاسف وبواعث الاسى الشديد ان الناس لا يفهمون الامر إلا كذلك ، ولاجل ذلك كلما رأوا هذا الاقرار المجرد موجوداً شرعوا في تشييد صرح الاسلام العملي ، وكذلك التقوى والاحسان الذي لا ينهض ولا يطول على هذا الاساس الواهي الا ليسقط وينهار . اما الحياة الاسلامية الكاملة فلا بد لابرازها وتشييد صرحها ان يكون الايمان شاملاً محيطاً بجميع جوانبه ، راسخاً بعيد

الغور في تأصل جذوره . فاي شعبة تفوت من شعبة التفصيلية الواسعة تبقى تلك الشعبة نفسها في الحياة الاسلامية ناقصة البناء ، وحينما يبقى الضعف في رسوخ الايمان وبعد غوره ، يبقى بناء الحياة الاسلامية في الموضع نفسه عرضة للضعف والوهن والانهيار .

وخذوا لذلك الايمان بالله مثلا ، وهو رأس الدين واللبنة الأولى من اساسه فسوف تجدون أنه كلما جاوز الاقرار بالله صورته العادية وتناولته التفاصيل ، ظهر بمظاهر مختلفة لا تحصى ، فلا يبدو عند طائفة من الناس الاقرار بان الله تعالى له وجود وهو خالق هذا الكون ولا شريك له في ذاته ، وعند طائفة اخرى ينكمش نطاقه وينحصر في أن الله هو الهنا فعلينا بعبادته . وعند طائفة اخرى تحد صفات الله تعالى وحقوقه تصرفاته ــ على وسعها ورحبتها ــ بأنه عالم الغيب والشهادة ، السميع البصير ، مجيب الدعوات وقاضي الحاجات ولا شريك له في استحقاقه لجميع الصور الجزئية للعبودية ، وأن كتابه هو المرجع الاخير في جميع الشؤون الدينية على حسب مصطلحهم المحدود . ومما لا مجال فيه للريب ان هذه التصورات المختلفة لا يمكن ان يتكون بها منهج ونظام للحياة واحد بعينه ، بل كلما كان التصور

ضيقاً محدوداً كانت الصبغة الاسلامية في الحياة العملية والاخلاق ايضاً محدودة ، حتى انكم ترون ان الذين قد بلغ عندهم الايمان بالله الى اقصى غاياته حسب التصورات الدينية الشائعة ، لا يعدو في نظرهم نطاق الحياة الاسلامية ان يجمعوا بين طاعة الله تعالى وبين الاذعان والتذلل للطواغيت ، او ان يضموا نظلم الكفر الى نظام الاسلام حتى يحصل منها مركب جديد يجدون فيه كل ما تشتهيه أنفسهم .

و كذلك يختلف مقياس رسوخ الايمان بالله وبعد غوره باختلاف الناس . فمنهم من لا يرضى ولو ببذل شيء حقير مما يعز عليه في سبيل الله مع اقراره وايمانه به . ومنهم من يكون الله تعالى احب اليه من بعض ما عنده من الاشياء ، كما تكون بعض الاشياء الاخرى أحب اليه من الله . ومنهم من يشري في سبيل الله حتى نفسه وماله ، ولكن يعز عليه التضحية بافكاره وآرائه الخاصة او سمعته التي قد نالها بين الناس . فهذه هي المقادير والمقاييس المحكمة التي يتعين بالنسبة اليها استقامة الحياة الاسلامية وتزلزل امرها . وهكذا يخون الانسان اخلاقه الاسلامية في نفس الموضع الذي يكون فيه بنيان الايمان ضعيفاً واهناً .

فالحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحيـــاة الاسلامية الكاملة الخالصة إلا على دعائم ذلك الاقرار بالتوحيد الذي يحيط بجميع نواحي الحياة الانسانية ، الفردية والجماعية ، والذي يحسب الانسان بموجبه أنه هو وكل ما بيده من شيء ملك لله ويرى ان الله هو المالك الشرعي الحقيقي له وللعالم كله ، المعبود المطاع وله الأمر والنهي وأن لا ينبوع للهداية إلا هو ، وتطمئن نفسه بكل شعور الى ان الانحراف عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته او اشراك غـــيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته ان هو الا امعان في الضلالة من اي ناحية جاء او في اي لون كان .

ثم ان هذا البناء ـ بناء الايمان بالله ـ لا يمكن توطيد دعائمه الا اذا راى المرء في باطن امره رأياً جـــازماً ، وقطع على نفسه بشعور كامل وارادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك لله وراجع الى مرضاته ، وقضى على ما في نفسه من مقياس للرضا والسخط وجعله مذعناً لرضا الرب تعالى وسخطه ، ونفى عن نفسه الاثرة والكبرياء ، وصاغ نظرياته وافكاره وآراءه وميوله ونزعـــاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي قد انزله الله تعالى في كتابه العزيز وخلع عن عنقه ربقة جميع انواع الولاء الذي لا يذعن لطاعة الله ، بل يمكن أن يقف في وجهها ، ومكن محبة الله تعـــالى ومودته من

سويداء قلبه ، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطالبه باجلاله واكباره أكثر من الله تعالى ، وأدغم حبه وبغضه وصداقته وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه... الخ في مرضاته تعالى حيث لا ترضى نفسه الا بما يرضى به الله تعالى ، ولا تكره الا ما يكرهه الله تعالى . فهذه هي مرتبة الايمان بالله الحقيقية وغايته المرموقة ، ومما لاخفاء فيه انه ما دام «الايمان» ناقصاً محدوداً في سعته وشموله ونضجه واستحكامه من هذه الوجوه ، فأنّى يمكن وجود التقوى والاحسان ؟ وهل تسد هذا الخلل وتتداركه المبالغة في اعفاء اللحى او هيئة الازياء او عملية السبحات او قيام الليالي ؟

ولكم أن تقيسوا على ذلك الايمان بالنبوة والكتاب واليوم الآخر ... الخ . فانه لا يكمل الايمان بالنبوة الا اذا آمن المرء بالرسول قائداً له مرشداً يهتدي بهديه ويتأسى بأسوته في كل شأن من شؤون الحياة ، ورفض سائر الطاعات والارشادات والهدايات التي تخالف هديه او تستغني عنه . وكذلك يبقى الايمان بالكتاب ناقصاً ما دامت في القلب شائبة من شوائب الطمأنينة بهيمنة اصول ومبادىء للحياة غير التي جاء بها كتاب الله تعالى ، او كان القلب والروح ينقصها القلق على عدم اتباع الدنيا لما انزل الله واتخاذها

اياه نظاماً لحياتها. وكذلك لا يكمل الإيمان بالآخرة ما دامت نفس المرء لا ترضى بايثار الآخرة على الدنيا ورفض القيم الدنيوية بازاء القيم الاخروية، لاولا يقلقه الشعور بالمسؤولية الاخروية عند كل خطوة يخطوها في الحياة الدنيا. فحينما كانت هذه الاسس والدعائم منعدمة فأنى للحياة الاسلامية الشاملة ان يشيد بناؤها هنالك؟ فلما حسب الناس انه من الممكن ان يشيد صرح الاخلاق الاسلامية بدون توسعة هذه الدعائم واكمالها واتقانها وارساخها، آل بهم الامر الى انك تجد اليوم باب التقوى والاحسان ومراتبها العالية مفتوحاً على مصراعيه حتى في وجوه القضاة الذين يحكمون بغير ما انزل الله، والمحامين الذين يتخاصمون على اسس القوانين غير الشرعية، والعمال الذين يدبرون شؤون الحياة الانسانية تحت نظام الكفر والالحاد، والزعماء والقواد الذين يتسابقون ويتنافرون في ما بينهم ليشكلوا الحياة البشرية ويؤسسوها على اصول المدنية والسياسة الكافرة. فهؤلاء القوم كلهم يعدون من المتقين المحسنين اذا اهتموا بافراغ ظواهر حياتهم وملامحهم في قالب معين، وعودوا انفسهم قدراً معلوماً من النوافل والاذكار والاوراد.

الأسلام :

فدعائم الايمان وأسسه التي ذكرتها لك آنفاً ، إذا تأصلت وتكملت وأخذت في الارض مكانها اللائق بها ، ينهض عليها بناء الاسلام الذي هو ثاني مدارج الاخــلاق الاسلامية ، كما عرفت مما تقدم . فما الاسلام إلا عبارة عن ظهور الايمان في صورة العمل . فعلاقة الايمان بالاسلام كعلاقة البذر بالشجرة . فلا يظهر بالشجرة إلا كل ما يكون في البذر ، حتى انك اذا اختبرت الشجرة عرفت ما كان وما لم يكن في بذرها . فكما انه لايكاد يمر بخلدك أن تنبت الشجرة وتبسق اغصانها من غير ان يبذر لها البذر في الارض . أو تأبى الشجرة ان تنبت وتؤتي ثمارها وإن بذر لها البذر في أرض طيبة غير مجدبة ؟ فهذا ما بين الايمان والاسلام بعينه . فحيثما كان الايمان ، كان لزاماً أن يظهر في حياة الانسان العملية وأخلاقه ومعاملاته للناس وقطعه أو وصله للأرحام واتجاه سعيه وكفاحه وميل طبعه وذوقه ومصرف أوقاته وقواه وكفاءاته إلى غير ذلك من كل جزء من سائر مظاهر حيــاته . وإذا وجدت ناحية من هذه النواحي يظهر فيها شيء غير الاسلام ، فاعرف ان الايمان لا يوجد في تلك الناحية ؛ وإن وجــد ، فلا قوة فيه ولا

حياة . وإذا كانت الحياة العملية تجري بقضّها وقضيضها في مجرى غير إسلامي ، فاعلم أن القلب خلو من الايمان او قد بلغت الارض في جدبها وقحلها الى حد بعيد حتى لايكاد بذر الايمان يؤتي فيها اثماره . فالذي أعتقده وأجزم به ، بعد ما قدر لي الله تعالى من مطالعة الكتاب والسنة ودراستها ما قدر ، أنه من المستحيل وجود الايمان في ألقلب وعدم ظهوره بظهر الاسلام في الاعمال.

وأرجوكم في هذا المقام أن تجردوا اذهانكم من تلك المباحثات التي قتلها بحثاً الفقهاء والمتكلمون في باب الايمان والعمل وما بينهما من العلاقة ، ولكم أن تفهموا هذه القضية وتحيطوا بها علماً من كتاب الله رأساً. فالذي يظهر من القرآن الكريم واضحاً جلياً أن الايمان الاعتقادي والاسلام العملي متلازمان في ما بينهما ، وقد قرن الله تعالى بينهما في غير موضع من كتابه العزيز ، وأنه ما وعد بما وعد من حسن الجزاء والثواب إلا عباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً . ثم الذي يتراءى لك من هذه النظرة في القرآن أن الله تعالى كلما آخذ المنافقين بجرائرهم يقيم الحجة على قلة إيمانهم بأعمالهم السيئة ، ويجعل الاسلام العملي هو الدليل على الايمان الحقيقي . غير ان الذي لا ريب فيه ان

تكفير رجل من رجال الاسلام بحكم الشرع والقانون وإخراجه من حظيرة الامة المسلمة لا يتعلق بهذا المقام ، فان الحاجة فيه الى الحيطة والتأني شديدة جداً ، ولست الآن بصدد أن أذكر لكم ذينك الايمان والاسلام اللذين تترتب عليها الأحكام والقضايا الفقهية في هذه الدنيا ، وإنما انا بصدد ذكر ذينك الايمان والاسلام اللذين ينفعان أو يضران صاحبهما عند الله يوم القيامة ، وعليهما تترتب النتائج الأخروية .

فانك اذا ضربت صفحاً عن القانون المجرد ، ونظرت بعين الحقيقة والواقع ، وجدت انه حينما كان السقم في استسلام المرء لربه وتفويضه امره اليه في أعماله ، وحينما كان رضا نفسه مجافياً لرضا الرب تعالى ، وحينما كان مكباً على اشغال واعمال غير السعي في سبيل اقامة الدين ، وحينما كانت جهوده ومساعيه تصرف في سبيل غير سبيل الله تعالى ، كان إيمانه مصاباً بالنقص والضعف . ومن الظاهر طبعاً انه لا يمكنه أن يشيد بناء التقوى والاحسان على أسس من الايمان والاسلام غير راسخة ، ولو حاول أشد المحاولة في تشبيه ظاهر صورته وزيه بصور المتقين وأزيائهم والتمشي على اقدامهم في بعض اعمالهم . فالصور الظاهرة الخلابة اذا كانت خالية من روح الحقيقة ، فانما مثلها كمثل رجل بالغ

الغاية في الجمال ، أبقي جسدُه على الارض في زي مزخرف مبرقش بعد ما فارقته روحه . فان انخدعتَ بظاهر هذا الجسد الملقى على الارض وعلقت به بعض آمالك ، لا تلبث ان تنكشف لك الحقيقة وتبوء بالخيبة والخسران في اول اختبارك في عالم الواقع ، فهناك تعلم علم اليقين ان رجلاً دميماً إذا كان حياً قوياً خير من رجل بالغ الغاية في الجمال والحسن اذا فارقته الروح . نعم ! من اليسير عليك ان تخدع نفسك بالصور الظاهرة الخلابة ، ولكنه لا يمكنك ان تترك بذلك اي أثر في عالم الواقع ، او تنال وزن قطمير في كفة ميزان الله تعالى يوم القيامة ، فان كنت لا تنخدع بالظاهر ولا تريد إلا دينك التقوى والاحسان الحقيقين اللذين ينفعانك في اعلاء كلمة الدين في الدنيا وترجيح كفة الخير في الآخرة ، فاعلم علم اليقين ان طبقتي التقوى والاحسان العاليتين لا ترتفعان إلا إذا كان أساس الايمان راسخاً متأصلاً وأصبح الاسلام العملي ـ أي الطاعة والانقياد لله عملاً ـ دليلاً ساطعاً على رسوخه وتأصله .

التقوى :

ولكم أن تجتهدوا في فهم التقوى وإدراك معناها قبل

أن نتناولوا ذكر تفاصيلها . فما التقوى ، في حقيقة الأمر ، بعبارة عن زي مخصوص وهيئة معينة وطراز للمعيشة بعينه ، وإنما هي عبارة عن حال النفس التي تتكون وتتولد من خشية الله تعالى والشعور بالتبعة وتظهر وتتجلى في كل ناحية من نواحي الحياة ومظهر من مظاهرها . فالتقوى الحقيقية هي أن يكون قلب المرء مستنيراً بخشية الله والشعور بعبوديته ، وان يكون وعيه للقيام بين يدي ربه والمسؤولية أمامه يوم القيامة شديداً قوياً ، وان يدرك ادراكاً تاماً قوياً أن ليست هذه الحياة الدنيا إلا مضماراً لامتحانه حيث قد بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن ، ولا تنحصر القضية في مستقبله الدائم الا في شيء واحد وهو : كيف يستخدم قواه وكفاءاته المختلفة في هذا المضمار للامتحان وكيف يكون تصرفه في ما أوتي من المال والمتاع حسب المشيئة الربانية ، وماذا يكون من معاملته للذين تتصل بهم حياته من مختلف الجهات ؟ فكل من نشأ فيه هذا الحس وذلك الشعور ، فقد تنبه ضميره وزاد شعوره الديني جلاء واصبح يحيك في قلبه كل مالا يوافق حب الله تعالى ، وصار يحاسب نفسه : ماذا ينشأ فيه من الميول والرغبات

وفيم يقتل أوقاته ويصرف مواهبه وقواه من الاشغال ، وأخذ يكف نفسه عن الوقوع في المشتبهات فضلاً عن المنكرات والمحظورات الصريحة الواضحة ، واجبره ما في نفسه من الشعور بالواجب على القيام بجميع الاوامر والواجبات بكل طاعة وامتثال ، واثرت فيه خشيته لله أبلغ تأثير ، حتى لتكاد تتزلزل اقدامه عندما يخاف على نفسه من الاجتراء على حدود الله واصبحت من ديدنه المحافظة على حقوق الله ، وحقوق عباده في الارض ، ووجل قلبه من أن يأتي بشيء يخالف الحق والصدق.

وهذه الكيفية والحالة لا تظهر في حياة الانسان بصورة خاصة أو في نطاق للعمل ضيق محدود ، بل هي تستولي على منهج فكرته وتتجلى في ماجريات حياته بأسرها ، وينشأ فيه بموجب تأثيرها من السيرة الحنيفية والخلق النزيه الطاهر ما لا يوجد فيه إلا الصفاء والطهارة والنظافة بطراز مخصوص في جميع وجوهه المختلفة . أما الذين لم تكن كلمة « التقوى » عندهم إلا عبارة عن اتباع المرء لبعض صور معينة ومواظبته على بعض طرق معلومة وافراغه ظاهره — بطرق متصنعة غير فطرية — في قالب مخصوص ، فهناك تجدهم اشداء في المواظبة على صور التقوى هذه التي قد تمرنوا وراضوا عليها

انفسهم بغاية من الاجتهاد والكد والاهتمام ، ولكن تجدهم في الوقت نفسه يظهر من نواحي حياتهم الأخرى من الأخلاق ومناهج التفكير وطراز العمل وطرق السعي والجد ما لا يلتئم ولا يتوافق مع مقتضيات الايمان البدائية فضلاً عن مقام التقوى الأسمى. وهذا كما قال السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بلغته الخاصة : «أيها القادة العميان الذين يغصون من البعوضة ويبلعون الجمل . » (١)

ولك أن تدرك هذا الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة بأن أضرب لك مثلاً رجلين احدهما يشعر بالنظافة والطهارة شعوراً كلياً ، وفيه ذوق بالغ في الصفاء والزكاء ، فهو يكره نفس القذر ولو كان في أي نوع من أنواعه او شكل من أشكاله ، ويؤثر نفس الطهارة ويرغب فيها ولو لم يكن في وسعه الاحاطة بجميع مظاهرها . افيستوي هو ومن ليس عنده أي شعور بالطهارة ولكن يحمل بيده فهرساً مطولاً لاسماء طائفة من الاقذار والادناس قد استنسخه من هنا او هناك ، فيتجنب تلك الاقذار والادناس التي اندمجت في هذا الفهرس اشد تجنب ، ولكنه متلوث بكثير من الادناس المختلفة التي

---

(١) انجيل متى الباب ٢٣ الآية ٣٤ .

هي أشد وأغلظ من التي يتجنبها ، بمجرد نها لم تندرج في هذا الفهرس لسبب من الاسباب .

وليس هذا الفرق الذي انا بصدد بيانه لك في هـذا المقام بفرق نظري فحسب ، بل انك لتراه ملموساً متجلياً بعيني راسك في حياة اولئك الذين طبقت سمعة ورعهم وتقواهم الآفاق ، يبالغون في الاهتمام بالجزئيات الشرعية والمحافظة عليها حتى أنهم يفسقون كل من كان في لحيته شيء من القصر عن ذلك القـدر المخصوص الذي قد عينوه لطول اللحية ، ويتوعدون بدخول النار كل من اسبل ازاره إلى اسفل من كعبيه قليلاً ، ويكادون يعدون الانحراف عن اتباع الاحكام الفرعية لمذهبهم الفقهي خروجاً من دين الله . هذا في جانب ، وبجانب آخر قد اسرفوا إسرافاً شديداً في اغفالهم لاصول الدين وكلياته ومبادئه الاساسية ، حتى لقد جعلوا حياة المسلمين باسرهـا قائمة على الرخص الشرعية والمصالح السياسية واخترعوا من الحيل والمكائد لاعراضهم عن بذل شيء من جودهم في سبيل إقامـة الدين مالا يأتي عليه الاحصاء ؛ والذي هم باذلون فيه جل همهم ومساعيهم ان يرسموا للمسلمين خطة « العيشة الاسلامية » تحت غلبة الكفر وسيطرته واستيلاء نظامه ، وهم الذين أقنعت زعامتهم وامامتهم

عامة المسلمين بأنهم يستطيعون أن يعيشوا «عيشة دينية» في نطاق ضيق ويبرئوا ذمتهم من جميع مقتضيات الدين ولو كانوا مغلوبين على أمرهم تحت نظام غير اسلامي ، بل ولو كانوا باذلين في سبيل خدمته مهجهم وارواحهم وليس لهم وراء ذلك مطمح يجاهدون في سبيله ويسعون وراء تحقيقه.
وأشد من ذلك وأدعى إلى البكاء والويل انه إذا تجرأ أحد وعرض على هؤلاء القوم مقتضيات الدين الحقيقية وحاول لفت انظارهم إلى السعي في سبيل اقامة الدين ، فانهم لا يقتصرون على ان يصعروا خدودهم ولا يعيروا لقوله شيئاً من الاهتمام والعناية ، بل لا يذرون شيئاً من التعلات إلا أتوا به ليتقاعسوا عن هذا السعي هم انفسهم ، ويصدوا عنه غيرهم من المسلمين ، أو ليس من العجب العجاب ان كل ذلك لا يمس ورعهم وتقواهم في قليل ولا كثير ؟ ولا يكاد يشك اولو العقلية الدينية في كمال تقواهم اصلاً ؟ وكذلك لا يزال الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة يبدو في صور ومظاهر أخرى كثيرة ايضاً ويسهل عليك إدراكه اذا كان التصور الجوهري للتقوى واضحاً غير مبهم في ذهنك .

ولا يذهبن بكم سوء الظن بما قلت إلى أنني أريد الاستخفاف بما نص عليه في الحديث النبوي من الآداب

والاحكام المتعلقة بالهيئة الظاهرة والزي والملبس وآداب المعيشة ، ومعاذ الله أن أتجرأ على مثل هذا الرأي أو يخطر لي ذالك على بال . والذي أريد القاءه في روعكم ان ملاك الامر وجوهره هو حقيقة التقوى لا مظاهرها الملموسة هذه. فكل من نشأت وتأصلت في قلبه حقيقة التقوى فقد اصطبغت حياته كلهابصبغة من الحنيفية والاستقامة واصبحت حياة اسلامية خالصة ، ولا يزال الاسلام بشموله الاتم يبدو ويتجلى شيئاً فشيئاً في أفكاره وعواطفه وميوله وذوقه الشخصي وانقسام اوقاته ومصارف مواهبه وطرق سعيه وكفاحه ومنهاج عيشته ومكسبه وانفاقه وما اليها من نواحي حياته الدنيوية الاخرى . اما اذا عكستم الامر وآثرتم المظاهر على الحقيقة وبالغتم في العناية بهافوق ما تستحقه ، وأبيتم الا الامتثال لبعض الاحكام والاوامر الظاهرية بطريقة غير فطرية من غير ان تلقوا في الأرض بذراً للتقوى الحقيقية وتتعهدوه بالسقي ، فلن تبوءوا إلا بالنتائج نفسها التي ذكرتها لكم آنفاً . ففي الصورة الاولى يحتاج المرء إلى غاية من الصبر والاناة والتريث ، فان النتائج فيها تتدرج في النماء وتتأخر إلى مدة من الزمن . وذلك كما تشاهدون في بذرة تلقونها في الارض ، فان الشجرة التي تنبت منها

لا تكبر وتتكمل وتؤتي ثمارها وازهـارها في يوم او يومين ، بل يمضي عليها ما يمضي من السنـين الطوال العديدة . فلذا يمل هذه الصـورة ويشمئز منها الذين في طبعهم النزق والاستعجال . أما في الصورة الثانية ، فان النتائج لا تلبث ان تتمثل امام اعينكم بكل سرعة وبكل سهولة . وذلك كما تنصبون في الارض قطعـة من الخشب تشبه الشجرة في هيئتها وصورتها الظاهرة وتعلقون بها من الاوراق والازهار والاثمار ما يجعلها في أعين الناظرين . ومن ثم تجدون هذه العملية الثانية اليوم أكثر رواجاً وانفق سوقاً من الاولى في الاندية والمحافل . ولكن الحق أن الآمال والاماني التي تحققها شجرة فطرية لا يمكن ان يأتي ولا عشر معشارها من مثل هذه الاشجار المتصنعة .

الاحسان :

هذا ، وهيا بنـا الآن لنتناول في الختام « الاحسان » فانه أعلى طبقات الاسلام وارفعها كما عرفتم . فالاحسان في الحقيقة ، هو عبارة عما يجعل المرء متفانياً في الاسلام من صلة قلبية بالله ورسوله وحب متأصل ووفاء صـادق وبذل للمهج وتضحية بالنفوس والنفائس . فتصور التقوى الاساسي هو خشية الله وخوفه ، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء

سخطه . وأما الاحسان فتصوره الاساسي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته . ولكم أن تدركوا ما بين التقوى والاحسان من الفرق بأن أضرب لكم مثلا موظفي حكومة من الحكومات . فمنهم من يقومون باداء ما يلقى اليهم من الواجبات بكل شعور بالتبعة واجهاد النفس ويواظبون على جميع ضوابط الحكومة وقواعدها ولا يأتون بشيء يخالف مصلحة من مصالحها ويجلب عليهم اعتراضها . وبازائهم طبقة أخرى من المخلصين الصادقين الأوفياء الذين ينتصرون للحكومة بأنفسهم واموالهم ولا يقتصرون على اداء ما يلقى عليهم من الواجبات، بل لا يزالون يجيلون تفكيرهم ويصرفون همتهم في ايجاد طرق ومناهج للعمل يرقون بها صالح الحكومة ويعلون بها كلمتها ، فيعملون ويجتهدون بموجب هذه النزعة أكثر مما يطالبون به . وكلما يرون شيئاً يهدد سلامة الحكومة ، يضحون في سبيل الدفاع عن كيانها بما في وسعهم من الانفس والاموال والاولاد . وكلما يجدون القانون تنقض قواعده يشعرون بألمه في صدورهم . وكلما يشمون رائحة للغدر يقلق بالهم ولا يدخرون ما في وسعهم من المهج والأرواح في إطفاء شعلته واجتثاث جذوره من الأرض . وإنما يكون أحلى أمانيهم ، وهم في سبيله

يسعون ، أن تكون دولتهم مرهوبة المقـام مرفوعة الرأس من بين دول العـالم كلها ، ولا يبقى صقع من اصقاعها الا ويكون علم دولتهم مرفوعاً في أجوائه . فهؤلاء هم محسنون للحكومة واولئك متقون لها . ولا شك ان المتقين يرفعون درجات وتدرج اسماؤهم في جدول اسماء الموظفين الاوفياء للحكومة ، إلا ان المحسنين هم الذين ينعمون بأعلى الدرجات التي لا تتطلع اليها اعناق المتقين ولا غـيرهم . ولكم أن تقيسوا على ذلك المتقين والمحسنين في الاسـلام . فالمتحلون بالتقوى ، وإن كانوا رجـالاً يوثق بهم ويعتمد عليهم ، ولكن قوة الاسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم ، ولا ينهض بالمهمة التي يريدها الاسلام في هذا العالم الا هذه الطبقة من المحسنين وحدها.

فاذا كنتم قد أدركتم حقيقة الإحسان هذه ، فتفكروا في شأن أولئك الذين يرون بأم اعينهم ان دين الله قد رزىء وغلب على امره بيـد الكفر وأهـلـه ، وان حدود الله ما انتهكت واعتدي عليهـا فحسبُ ، بل يشاهدون أنها تكاد تنعدم من الوجود لأجل غلبـة الكفر ؛ وان شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور لا عمـلاً فقط بل بموجب القانون أيضاً ، وان أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء

الله ، ويشاهدون أن المجتمع الانساني العام قد دب دبيب الفساد في أخلاقه ومدنيته بموجب غلبة نظام الكفر ، بل الامة الاسلامية نفسها قد رزئت ولا تزال ترزأ بكثير من الضلالات الخلقية والعملية بغاية من السرعة والشدة ؛ — يرون كل ذلك ويحسونه بين كل آونة واخرى . ولكن لا تكاد تتنغص عليهم حياتهم ، ولا يكاد ينبض بهم عرق الغيرة حتى يقوموا للعمل على أن يستبدلوا حياة صالحة راشدة بهذه الحالة المخجلة الحاضرة . بل الأمر انهم بالعكس من ذلك يسعون دائماً ويستخدمون كل ما أوتوا من الذكاء والفطنة في اقناع عامة المسلمين — مبدأ وعملاً — بغلبة نظام الكفر وسيطرته عليهم . فكيف يمكن ان يعد أمثال هؤلاء من طبقة المحسنين ، وكيف يمكن لهم أن يتمتعوا بمرتبة الاحسان العليا مع هذا التهاون العظيم في أمر الله ، ويظلوا مستمتعين بمجرد انهم يقومون الليالي ويؤدون صلاة الضحى ويصرفون أعمارهم في الأذكار والاوراد والرياضات الصوفية ويلقون دروساً للقرآن والحديث ويبالغون في الاهتمام بفروع الفقه والسنن غير المهمة ويدربون أتباعهم في زواياهم التي بنوها لتزكية النفس على فن التدين الذي إن كان يشتمل على لطائف الحديث والفقه والتصوف ونكاتها ،

فانه لا يشتمل على لباب الدين وقوام أمره ، الا وهو عدم الاستسلام لحاكمية غير الله وبذل النفوس والنفائس في سبيل اقامة الدين واعلاء كلمة الحق.

وهذا الفرق بين الوفي الناصح والعدو الغادر لا تكاد تخلو منه حتى ولا عامة الدول والامم الدنيوية في الارض فان قامت ، مثلاً ، في بقعة من بقاع الدولة طائفة من الناس خارجة عليها أو تسلط عليها العدو من الخارج ، فالذين يستجيزون سلطة الاعداء والغادرين او يطمئنون اليها إطمئناناً ويصالحونهم على شروط تتم على ذلتهم واستكانتهم أو يشكلون تحت اشرافهم نظاماً للبلاد لا تكون أزمة الامور وخزائن البلاد إلا بأيدي هؤلاء الاعداء ويقتنعون في انفسهم بجانب من الحقوق والتصرفات الجزئية ، لا تجد دولة من دول الارض او أمة من امها تعد امثال هؤلاء الناس الذين يميلون إلى العدو ويجنحون له ، من رجالها المخلصين الامناء الصادقين ، ولو كانوا بالغين اقصى الغاية في التشدد بزيهم القومي واتباع قانونهم القومي في شؤونهم الجزئية . وها هي البلاد التي خرجت من حوزة ألمانية بعد الحرب العالمية الثانية ماثلة أمامكم ناطقة بصحة ما قررت . أفرأيتم بماذا يعامل فيها

الآن أولئك الاقوام من أهلها الذين مدوا إلى ألمـــانية يد المصالحة والتعاون عندما استولت على بلادهم ؟ فهؤلاء الامم والدول الغربية اللادينية ليس عندها الا مقياس واحـــد لاختبار الوفاء والاخلاص ، وهو مزاحمة الرجل لسلطة العدو على بلاده وعمله في سبيل القضاء عليها وبذله الجهد المستطاع في ارجاع تلك السلطة التي هو مدعي الوفاء بها . أفمن حسبانكم اذن ان الله تعالى اقل من رجال الدنيا الناقصي العقل والبصيرة هؤلاء تمييزاً بين أوليائه وأعدائه . أفتراه ينخدع بطول اللحى وعملية السبحات والاشغـــال والاوراد والوظائف والتطوعات والمراقبات وما إليها من الأعمال الاخرى ويعدكم من أوليائه ؟

أمثلة لسوء التفاهم في هذا الباب وإزالتها :

سادتي الكرام ! الآن ، وأكاد أن أنتهي من كلمتي هذه ، أريد أن أبين لكم شيئاً واحداً مهماً . وهو أنه قد سيطرت على أذهان عامة المسلمين اليوم أهمية الفروع والظواهر بسبب كثير من التصورات والنظريات الخاطئة الضيقة حتى أصبحوا لا يكادون يبرحون هذه المسائل التافهة والظواهر السفافة مها بذلتم من جهودكم وحاولتم بكل وسيلة لفت أنظارهم

إلى أصول الدين وكلياته وجوهر التدين والخلق الاسلامي الحقيقي ، فكأنهم قد جعلوا هذه الفروع والمسائل الجزئية أصلاً لدينهم وأساساً يشيدون عليه بنيانه ، وهذا الوباء الشامل نرى كثيراً من أعضاء جماعتنا وأنصار دعوتها قد تأثروا به بعض التأثر . وقد استنفدت كل جهدي في ما مضى في إفهامهم وتلقينهم حقيقة الدين وما فيه لمثل هذه الامور من أهمية وما يستحق التقديم وما يستحق التأخير من تعاليمه المتشعبة . و كذلك قد بلغني أن من الناس من يرون ان الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه « بالروحانية » على حين انهم لا يكادون يحددون بانفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى . ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير اليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها ، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية الى الزوايا . والذي تنم عنه هذه الافكار والآراء ضرورة أنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا لهذا الغرض من الجهود المتتابعة . وها قد بينت لكم آنفاً « الايمان والاسلام والتقوى والاحسان » فان كنتم ترون في هذه الكلمة شيئاً اختلقته من تلقاء نفسي معرضاً عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فلكم أن تنبهوني عليه وتهدوني

إلى الصواب في أمره. وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الاربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة، فتفكروا هل يمكن ان توجد تلك الروحانية التي انتم في صدد البحث عنها في اماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين، ولم تتأصل فيها جذور التقوى والإحسان؟ اما فروع الشرع التي تعدونها من مطالب الدين الاولية، فأرى ان أكرر لكم بيان منزلتها الحقيقية في الدين بشيء من الايضاح والتفصيل، حتى أتبرأ مما القي على كاهلي من تبعة البلاغ الثقيلة.

ولكم أن تتفكروا قبل كل شيء لماذا ولأي غرض أرسل الله تعالى رسله وأنبياءه الى هذه الدنيا؟ واي شيء كان ينقص الدنيا حتى بعثهم لايجاده فيها؟ وماذا كان فيها من فساد وأرسلهم لرفعه والقضاء عليه؟ افكان ذلك ان الناس ما كانوا يعفون لحاهم، فأرسل الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى اعفائها؟ ام كانوا يسبلون أزرهم فامر الله أنبياءه ان يدعوا الناس الى الكف عن ذلك، ام لم تكن هذه السنن التي تهتمون بها اشد اهتمام، جارية في الارض، فجاءت الرسل لاجرائها وترغيب الناس فيها؟ ولعمري إنكم إذا تأملتم في هذة المسائل، شهدت لكم قلوبكم شهادة ناطقة

انه لم تكن مفاسد الدنيا وسيئاتها من هذا القبيل ، وما كان بعث الرسل لغرض من هذه الاغراض . فاذا لم يكن الامر كذلك ، فتفكروا من اي نوع كانت تلك المفاسد والمنكرات التي كانت الدنيا مبتلية بها فجاءت الرسل لازالتها واجتثاث جذورها ، وماذا كانت تلك الحسنات التي كانت دعوة الانبياء إلى اقامتها وتحلية الحياة البشرية بمقتضياتها ؟ افيسعكم ان تجيبوا على كل ذلك إلا بان المفاسد والمنكرات الحقيقية التي كانت شائعة في الدنيا ، فجاءت الرسل والانبياء لتقليص ظلها والقضاء عليها : إنما كانت : انحراف الناس عن عبودية الرب تعالى وطاعته ، واتباعهم للقوانين والاصول الوضعية وعدم شعورهم بمسؤوليتهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ؟ فمنها نجم قرن الاخلاق الفاسدة ، وراجت في حياة العباد الاصول الخاطئة المضلة وطبق الفساد مشارق الارض ومغاربها. ثم كان الغرض من بعث الرسل وارسال الانبياء ان ينشأ في الناس الشعور بعبوديتهم وولايتهم لله ومسؤوليتهم بين يديه يوم القيامة ، وترقى الأخلاق الفاضلة ويقام نظام الحياة الانسانية على تلك الاصول والدعائم التي بها ينمو وينهض الخير والصلاح ويتقلص ظل الشر والفساد

وتنتكس رايتها ؟ فانما كان هذا هو الغرض الوحيد من بعث الرسل والانبياء ، وللدعوة إليه جاء اخيراً خاتمهم وسيدهم وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله ﷺ .

ثم انظروا قليلاً في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج والترتيب للبلوغ الى هذه الغاية ؟ فقد قام بدعوة الناس - أولاً وقبل كل شيء - إلى الايمان وأحكمه في قلوبهم وأتقنه على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشأ في الذين آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً ، الطاعة العملية - اي الاسلام - والطهارة الخلقية - اي التقوى - وحب الله والولاء له - اي الاحسان - ثم شرع بسعي هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الالهي المنزل من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنو به ولبوا دعوته من كل وجهة - بقلوبهم واذهانهم ونفوسهم واخلاقهم وافكارهم واعمالهم - مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله المخلصين الاوفياء ان ينصرفوا اليه - إذن وبعد كل ذلك اخذ النبي ﷺ يرشدهم الى ما يزين حياة المتقين المحسنين

من الآداب والعــادات المهذبة في الهيئة والملبس والمآكل والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس وما الى ذلك من الشؤون الظاهرة الاخرى . وكأنني به فتت الذهب ونقاه من الاوساخ والاقذار اولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينـــار ، ودرب المقاتلين اولاً ثم كساهم زي القتال . وهذا هو التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا البـاب كما يبدو لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيهما . فان كانت كلمة اتباع السنة النبوية عبارة عن اختيار المرء خطة العمل التي كان قد اختارها النبي ﷺ تحت الهداية الربانية اكمالاً لمشيئة الرب تعالى وتبرئة لذمته من مقتضيات العبودية ، فليس من السنة في شيء ان تكسوا ملابس المتقـين وتحاولوا افراغهم في قالبهم الظاهري المتصنع حتى يتشبهوا بهم في بعض اعمالهم الرائجة الشهيرة المرغوب فيها بين عامة الناس من غير ان تخلقوهم بأخلاق المؤمنين والمســلمين والمتقين والمحسنين وتحلوهم بصفاتهم الحقيقية . من الغش والخداع ان تضربوا على قطعات من النحاس والرصـاص بطوابع الدينار وتنفقوها في السوق، او تكسو الناس ملابس الجنود وتبوؤهم مقاعد للقتال في ســاحة الحرب من غير ان تدربوهم على صفات البسالة والشجاعة والوفاء والإيثار والتضحية . فمن نتائج هذا الغش

والخداع انه لا تروج اليــوم دنانيركم الزائفة في اسواق العالم ولا يرجع اليكم جنودكم المموهون بشيء من الظفر والانتصار في ميدان الحرب . افتعلمون اي شيء هو اعلى قدراً وارفع منزلة عند الله ؟ فلتفرضوا ان لديكم رجــلاً يؤمن بالله ايماناً صادقاً ، ويشعر بالمسؤولية شعوراً تاماً ويحافظ على حدود الله اشد محافظـــة ويؤدي كل ما عليـه من واجب الولاء لله والاخلاص والتضحية في سبيله ، الا انه ناقص الحظ في زيه الظاهر وأحط كعباً في الآداب الظاهرة ؛ فاقل ما يكون له منزلة عند الله انه خادم وفيّ صالح ولكن فيه بعضٌ من سوء الأدب ، وربما لا يتمكن بسبب ذلك من نيـــل المراتب العالية والدرجات الرفيعة عنده . ولكن هل تحسبون مع قلة عنايته بالزي الظاهر ان الله ربه وسيده يحيف عليه ويبخسه الاجر على هذا الولاء والاخـــلاص والتضحية ويصليه النار بمجرد انه لم يكن جميل الهيئة حسن الآداب ؟ ثم افرضوا ان لديكم رجلاً آخر قد بلـــغ الغاية في الاهتمام بزيه الجميل الشرعي ويراعي اشد الرعاية في التزامه بالآداب الشرعية ، ولكنه ناقص الحظ في ولائه لله وشعوره بالتبعة وغيرته على الايمان ، فماذا يكون من تقدير الله لهذا الكمال الظاهر مع هذا التفريط العظيم والنقص البالغ ؟ وليست هذه بمسألة من

المسائل القانونية المعضلة نحتاج لحلها والوقوف عليها إلى تصفح الكتب الضخمة ، وإنما يعلم كل فرد من افراد البشر بفضل عقله السليم اي" هذين الامرين يستحق القدر والإجلال عند الله ؟ حتى إن الذين لم يؤتوا إلا قليـــلاً من العقل وملكة التفكير من اهل الارض ليدركون بكل سهولة انه لا يستحق اي تقدير او اجلال في حقيـقة الامر . وهـا هي الحكومات الغربية ماثـــلة بين ايديكم بما في اهلها من الافتتان بالازياء الظاهرة والاهتمام بالآداب والعوائد البادية للعيان ، افتعلمون ما هو اجل قدراً وارفع منزلة عندهم ؟ انهم اذا وجدوا ضابطاً من ضبـــاط جنودهم يعمل الفكر والروية ويستنفد القوى الجسدية والفكرية في اعلاء كلمتهم ورفع علمهم ولا يدخر شيئاً من مساعيـه وجهوده ولا يأبى التضحية بنفسه ونفيسه عندما يبلغ الأمر مبلغ الجد يبالغون في اجلاله ورفع مقامه ولو بلغ في الجلافة وقلة الادب مبلغاً عظيماً : لا يحلق لحيته إلى ايام ويلبس ملبساً غير منسق ولا يعرف آداب الأكل والشرب ويجهل فن الرقص جهلاً تاماً . وبالعكس من ذلك عندما يرون ضابطاً آخر من ضباطهم يكون امة وأسوة — في نظرهم — في زيه وهندامه وحسن آدابه

وتحليه بالعوائد والرسوم الرائجة في مجتمعهم ولكنه ناقص الحظ في ولائه وتضحيته في سبيل الدولة ويؤثر نفسه واستراحته ومصالحه الذاتية على مقتضيات الغيرة القومية عند ساعة الجد والعمل ، فلا يتحرجون من محاكمته العسكرية فضلاً عن ان يرفعوا درجاته ويبالغوا في اكرامه وتبجيله . فاذا كانت هذه حال رجال الدنيا ناقصي العقل والمعرفة ، فما ظنكم بربكم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء . افيستوي عنده الذهب والنحاس ، وينخدع بطابع الدينار على وجه النحاس ، ويعد الذهب فلساً إذا كان مطبوعاً بطابع الفلس ؟

ولا يحملنكم ما بينت آنفاً على الظن بأني بصدد نفي المحاسن والمحامد الظاهرة او الاستخفاف بتلك الأحكام والاوامر التي وردت بها السنة — على صاحبها الف تحية وسلام — في شأن اصلاح وجوه الحياة الظاهرة وتهذيبها . كلا ! بل الذي اقول به واعتقده ان العبد المسلم يجب عليه الامتثال لكل ما امر به الله ورسوله ﷺ . وكذلك أعتقد من نفسي ان الدين يريد ان يهذب ظاهر العبد كما يريد ان يهذب باطنه ، ولكن الذي أريد ان أرسخه في أذهانكم وألقيه في روعكم بوجه خاص في هذا المقام ان

باطن العبد واصلاحه وتهذيبه أرجح وأقدم من ظاهر العبد واصلاحه وتهذيبه . فنوروا باطنكم بجوهر الحقيقة قبل ان تفرغوا ظاهركم في قالب الحقيقـــة . ولـكم ان تتفكروا وتستنفدوا قواكم في التحلي بتلك الخصال والصفات التي هي جديرة بالقدر والاجلال عند الله في واقع الامر والتي ما جاءت الرسل والانبياء إلا لترويجها وتنميتها . اما الزينة الظاهرة فاني واثق بان تتولد بنفسها نتيجة لهذه الصفات الباطنة . واما إن بقي فيها شيء من النقص ، فيمكن الاهتمام بتداركه عند اكمال المراتب والمراحل .

سادتي ورفقائي ! قد ألقيت بين أيديكم هـذه الخطبة المسهبة لأبين لـكم الامر الحق بكل ايضاح وتفصيل . وذلك اني أريد ان أبرىء ذمتي امام الله يوم القيامة من واجب شهادة الحق . فان الحياة لا عبرة بها ، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس باي ارض تموت . واني ارى من الواجب على نفسي ان أبرىء ذمتي من مسؤوليـــة البلاغ ، فاستوضحوني ايها الاخوان ان كان لديكم امر يحتاج الى مزيـــد الشرح والايضاح . وإن كان قـــد فرط مني شيء يخالف الحق ويضـــاده ، فردوه عليّ . وإن كنت قلت

الحق ، فاشهدوا به امام الله والملائكة والنـــاس اجمعين .
(الاصوات : إنا شاهدون . إنا شاهدون . . . .) .

وفي الختام أدعو الله تعالى ان يجمعنا على الخير ويثبت أقدامنا ويوفقنا لفهم دينه فهماً صحيحاً ويهدينا الى اداء جميع مطالبه ومقتضياته طبقاً لهذا الفهم .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



الفهرس



٨٠ ق.ل.

